الاحتفالات والموسيقى والغناء عند قبائل الصحراء الملثمين
(التوارق نموذجاً)

م.د. عباس علي خلف

وزارة التربية / المديرية العامة لإعداد المعلمين والتدريب والتطوير التربوي

journalofstudies@gmail.com

الملخص:

كان للمجتمع الصحراوي في افريقيا اهتمامات فنية وثقافية مثيرة، ترتبط بالتراث الحضاري الاصيل الذي تميزت به من بين المجتمعات الاخرى، وكان مجتمع قبائل التوارق واحدا من تلك المجتمعات التي اظهر اهتماما بالغا بالاحتفالات والمناسبات وبطرق احيائها وذلك عن طريق الموسيقى والغناء والرقص، التي عبر فيها المجتمع عن قيمه الاصيلة وثقافته الفنية الغنية بالإبداع، فتميزت نساؤهم بحضورهن الملموس في الواقع الاجتماعي عن طريق التزامهن آلة الامزاد التي ظلت حكرا عليهم، فامتزجت ايقاعاتهم الموسيقية بين التراث الاصيل وما دخل عليها من مفردات موسيقية اضفت عليها صفة الحداثة وتطور نتيجة الاحتكاك بالأقوام المهاجرة أو ممن حضر لغرض التجارة، لذلك نجدهم قد احترفوا العزف على شتى أنواع الآلات الموسيقية المحلية للحصول على ايقاعات مختلفة تسهم في خلق اجواء من الفرح في المناسبات المختلفة الموسمية العامة منها والاجتماعية والخاصة.

الكلمات المفتاحية: (الاحتفالات والموسيقى، قبائل الصحراء الملثمين، التوارق).

Celebrations, music and singing when the masked tribes of the desert
(Touareg as an example)

dr. Abbas Ali Khalaf

Ministry of Education / General Directorate for teacher preparation, training and educational development

Abstracts:

The Sahrawi community in Africa had exciting artistic and cultural interests, linked to the original cultural heritage that distinguished it among other societies. Its authentic values and artistic culture rich in creativity, so their women were

distinguished by their tangible presence in the social reality through their commitment to the auction machine, which remained a monopoly on them, so their musical rhythms mixed between the original heritage and the musical vocabulary that entered it, adding to it the characteristic of modernity and development as a result of contact with immigrant peoples or those who came for the purpose of trade Therefore, we find that they have mastered playing various types of local musical instruments to obtain different rhythms that contribute to creating an atmosphere of joy on various seasonal occasions, public, social and private.

Keywords: (Celebrations and Music, Masked Desert Tribes, Tuareg).

المبحث الأول: الجغرافيا والبيئة والنسب وأصل التسمية

١-البيئة الجغرافية للصحراء موطن الملثمين التوارق

إنَّ اي دراسة تاريخية تتناول حضارة شعب من الشعوب لابد ان تنطلق من اطار المكان الذي يشكل العنصر الاساس في نمو تلك الحضارة وتطورها، وبما ان هذا البحث يتناول الموروث الحضاري الخاص بجانب معين من الحياة الاجتماعية لقبائل الملثمين (التوارق) في مجال الاحتفالات والمناسبات والموسيقى والغناء والرقص التي يمارسها سكان الصحراء وما اشتملت عليه من فنون شعبية في ايام الاعياد والمناسبات التي اشتهرت بها تلك القبائل، لذلك لابد ان نسلط الضوء أولاً على الحيز الجغرافي لموطن قبائل الملثمين ومعرفة مدى تأثير البيئة في موروثهم الثقافي الغني بالحس الفني، وتسليط الضوء على انساب القبائل الصحراوية واصولهم ثانياً، وما يرتبط بذلك من تطور في العلاقات الاجتماعية بين السكان في الحقبة الاخيرة من العصر الوسيط.

تعد الصحراء الكبرى واحدة من اكبر صحارى العالم اذ تمتد لمساحات شاسعة تبدأ من الجهات الشرقية عند سواحل البحر الاحمر وواحات وادي النيل حتى بلاد السوس[١] عند حافة المحيط الاطلسي غرباً، ومن التخوم الجنوبية لشمال افريقية حتى الحافات المائية المتمثلة ببحيرة تشاد ونهري النيجر والسنغال عند تخوم بلاد السودان[٢] جنوباً، وقد عدت هذه الصحراء واحدة من اكبر صحارى العالم اذ شكلت مساحتها حوالي ربع مساحة القارة الافريقية[٣] ، وتتميز حددوها بعدم الوضوح لاسيما في الجهات الجنوبية المتاخمة لبلاد

السودان اما من الشمال فهي امتداد طبيعي لحدود بلدان شمال افريقية اذ تتخللها هضاب من الكثبان الرملية وعدد من التلال المتوسطة الارتفاع والمنتشرة فيها هنا وهناك[٤] فتوصف بانها سهل شاسع من الرمال يرتفع في بعض المناطق عن مستوى سطح البحر، تغطي بعض اجزائها الاعشاب الطبيعية والحشائش في مواسم هطول الامطار لتشكل مناطق رعي خصبة للسكان من بدو الصحراء، بينما يستقر البعض منهم عند الواحات الغنية بالمياه واشجار النخيل التي يزرع تحت ضلالها انواع من الحبوب[٥] وقد جاء وصف الصحراء في كتب البلدانيين والجغرافيين والرحالة العرب خلال العصر الوسيط اذ يعود لهم الفضل الأول في كشف الكثير من معالم هذه الصحراء وخصائصها الجغرافية والمناخية والطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل المتجهة جنوباً، ومناطق الاستراحة في المدن الصحراوية التي استقطبت اليها السكان، فأشار الاصطخري إلى تلك الصحراء اثناء حديثة عن اقليم المغرب فوصفها بـ(المفازة)[٦] لكونها قفر واسع يمتد من واحات مصر شرقاً إلى المحيط غرباً وهي لا تسلك الا من مواضع معروفة[٧]؛ وقد اشبع البكري كتابه المسالك والممالك الذي ألفه في منتصف القرن الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي بمقالات كثيرة في وصف الصحراء وشؤونها وأحوالها ومدنها وطبائع سكانها، فأتى على ذكر التضاريس والمناخ في حديثه عن مدينة سجلماسة[٨] التي وصفها بانها باب السودان وهي أول الصحراء لا يعرف في غربيها ولا في شرقيها عمران، واذا انحدرت جنوبا تقطع مسافة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة لا يسكنها الا قبيلة مسوفة من قبائل صنهاجة، ثم وصف الصحراء من ناحية مدينة أودغست[٩] فذكر ان فيها مجابه وجبال تمتد لمسافات بعيدة تفصل اجزاء الصحراء ولا يقطعها المسافر الا بشق الانفس ينال فيها شدة وخطرا كبيرا[١٠]، كما جاء وصف الصحراء الكبرى على لسان ابن بطوطة[١١] في رحلته الشهيرة الذي شق فيها غمار الصحراء طولاً وعرضاً وصولا إلى بلاد السودان الغربي قاطعاً تلك الفيافي القفر المخطرة، فذكر في مجمل حديثه وهو ينقل واقع تلك الصحراء بانها منقطعة شديدة الحر لا ماء فيها إلا في بعض المناطق على طريق التجار، وهي مليئة بالأفاعي السامة، ولا يمكن السير فيها إلا بوجود دليل، لذلك كان التجار يقطعونها بمصاحبة أحد سكان الصحراء من الملثمين من الذين خبروا دروبها ومتاهاتها والذي أسماه ابن بطوطة بـ (التكشيف)[١٢] وهو فيما يبدو تعبيراً لغوياً يقابله لفظ (الدليل) في اللغة العربية؛ اما الحسن الوزان فقد جعل الصحراء في القسم الثالث من افريقيا وذكر حدودها بدءً من تخوم الواحات شرقاً حتى المحيط غرباً، وتتاخم نوميديا(بلاد الجريد) [١٣]

المليئة بالنخيل شمالاً، وتتاخم بلاد السودان في الجنوب، وهذا وصف دقيق اعطى خلاصة لأبعاد المكان الذي قسمه بدوره إلى خمسة اقسام بحسب سكنى قبائل الملثمين(١٤).

اما بالنسبة لمناخ الصحراء الكبرى فقد ساد الاعتقاد بانها كانت في العصور القديمة تتمتع بإعتدال مناخي أسهم في إيجاد نشاط زراعي كبير ولكن بفعل عوامل الجفاف والتغير المناخي عبر العصور جعلها تتحول إلى قفار قاحلة الامر الذي أدى إلى نزوح القبائل نحو الجنوب والشمال ومن بقي منهم أسس عند مناطق الواحات مدناً صحراوية انتشرت هنا وهناك (١٥).

إن أبرز الملامح التي يتمتع بها مناخ الصحراء هو الحر الشديد وجفاف الهواء وقلة المياه بل وندرتها في أماكن شاسعة، وذلك بفعل تأثير المناخ الصحراوي الحار والمناخ المداري الجاف الذي يتسم بقلة سقوط الامطار، وارتفاع درجات الحرارة، وقد وصف ابن خلدون هذا الواقع قائلا:" ... مجالات الملثمين ما قلناه، مفاوز معطشة إلى بلاد السودان ... وتكون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها"(١٦)، والمقصود بالمزاج هنا بمعناه الحديث هو المناخ المداري الذي يسود تارة من اقليم الجبال العارضة في الشمال والمناخ الصحراوي السائد في عمق الصحراء إلى الجنوب، وهذا التباين جعل النشاط الزراعي ضعيف مع قلة وجود الاشجار وبساتين النخيل، لذلك فان هذا الواقع القى بضلاله على قبائل الصحراء فجعلهم دائمي التنقل بحثا عن الماء والكلأ.

وتهب في الصحراء رياح قوية عرفت باسماء محددة منها رياح (الشهلي) التي تهب وسط الصحراء إلى الجنوب، ورياح اخرى محملة بالرمال والزوابع في الجهات الجنوبية الشرقية تسمى عند المصريين رياح (الخمسين) باعتقادهم انها تستمر لمدة خمسين يوماً(١٧)، وقد وصف ابن بطوطة رياح الصحراء بانها من القوة بحيث تنقل تلالاً من الرمال من مكانها إلى امكنة اخرى، ويحدث نتيجة لذلك في بعض الاحيان دفن القوافل تحت الرمال وتغير ملامح الارض فتمحو اثر الطرق لاسيما في مناطق صحراء توات(١٨) جنوب فزان(١٩) ، كما جاء وصف رياح الصحراء على لسان ابن سعيد المغربي ايضا بانها كانت من القوة بحيث تجفف المياه في القرب لشدة حرها(٢٠)، وماذكره ايضا الحسن الوزان بان هناك نوع من الرياح تسمى(السيركو) (٢١) تهب من الجنوب باتجاه الشرق وهي شديدة القوة محملة بالرمال التي تقوم بدفن الابار بحيث لن تبقي لها أثراً(٢٢).

اما عن مصادر المياه في الصحراء فتشير الكتابات التاريخية والجغرافية إلى وجود شواهد على بحيرات قديمة انطمرت بفعل التغيرات المناخية، ولم يتبق سوى واحات منتشرة هنا وهناك لكنها ايضا تتعرض لعوامل الطبيعة نتيجة حركة الكثبان الرملية بفعل الرياح، مما يؤدي إلى طمر بعضها، اما المصدر الثاني فهو وجود الابار في مناطق متفرقة من الصحراء وهي على نوعين، الأول عبارة عن غدران كالأحواض تملئها مياة الامطار تنتشر في ارجاء محددة مما جعلها تشكل عنصرا مهما في تحديد طرق التجارة وسكن بعض القبائل[٢٣]، والنوع الثاني فهي الابار التي يقوم بحفرها سكان القبائل أو المسافرون الذين خبروا الصحراء وتفننوا في اكتشاف اسرارها، فكانوا يحفرون في مناطق يعرفونها تكون فيها المياه الجوفية قريبة من السطح، لذلك كسب هذا النوع من الابار اهمية في حياة سكان الصحراء الملثمين[٢٤].

نخلص إلى القول بان واقع الصحراء الكبرى التي استوطنها الملثمون كان واقعاً قاسياً فرض عليهم مظاهر عدة اهمها التنقل الذي اشتهروا به بحثاً عن المراعي ومياه الغدران والارض الرخوة التي تحتوي على مياه الابار القريبة، ومع هذا فان هذه العوامل أسهمت بشكل مباشر في ان جعلت الصحراء حلقة وصل للتبادل الثقافي وجعلتهم عناصر فاعلة في التواصل الحضاري بكافة اشكاله سواء كان على مستوى اللغة أو التجارة الصحراوية أو في نقل الموروثات والعادات والتقاليد وما أثر ذلك في تطور الحركة العمرانية والثقافية بين الشمال والجنوب.

٢-نسب الملثمين التوارق

اختلفت آراء المؤرخين العرب ونسابة البربر[٢٥] في أصل الاقوام القاطنة في شمال أفريقيا والصحراء الكبرى، وساد الغموض الأصول العرقية للبربر ولم تسعفنا الكشوف الاثرية وعلم الانتروبولوجي بأدلة قاطعة تبدد حلكة الشك وتنير الطريق أمام التساؤلات التي تطرح للوقوف على أصولهم، لذلك خضعت آراء المؤرخين إلى اعتبارات عدة، فمنهم ما كانت تحدوه العصبية القبلية فنسبهم إلى حمير اليمانية وماتفرع عنها من قبائل نتيجة الهجرات المتتابعة، ومنهم ماكان يبحث عن مجد مرموق فنسب الأقوام التي ينتمي إليها إلى بعض الانبياء ممن يحتلون مراكز السمو والرفعة مثل نبي الله أبراهيم عليه السلام، ومنهم من اعتمد اعتبارات تشابهة المكان والبيئة وطريقة العيش والعادات والتقاليد فنسبهم إلى كنعان

والعماليق، بل ومنهم ربما ذهب في نسبهم على وفق اعتبارات سياسية واستعمارية فأرجع أصولهم إلى قبائل الجرمان التي غزت أوربا وانحدرت نحو سواحل البحر المتوسط، وإذا ماعلمنا أن تلك المنطقة خضعت عبر القرون الماضية إلى غزوات مختلفة وهجرات متعددة شكلت عاملاً هاما في عملية اختلاط الأجناس مع بعضها البعض فإن كل ذلك وغيره أدى إلى ظهور هذا الاختلاف في أصل البربر[٢٦]، وماصدر بشأنهم ربما لايعدو سوى فرضيات قابلة للتغيير على وفق المستجدات التاريخية.

وبحسب ماذكره ابن خلدون في تاريخه بعد أن تناول مجموعة من آراء المؤرخين ولاحظ الإختلاف الكبير وعدم الإستقرار على نسب معين، بإن كل الآراء التي وقفت على أصل البربر هي مرجوحة وهي بعيدة عن الصواب ودلل على ذلك ترديده لبعض الكلمات مثل كلمة (زعموا)، وكلمة (قيل)، وهي إشارات على عدم الوثوق بتلك الآراء والشك بها، لكن يبقى شبه الإتفاق قائم على أن أصلهم يرجع إلى جذمين عظمين هما البرانس وماذغيس الذي يلقب بالابتر.

لذلك ذهب إلى تبني رأي وجد فيه الحق الذي لاينبغي التعديل على غيره في شأنهم بحسب زعمه، ذاكراً أن هذين الجذمين هم من ولد كنعان بن حام بن نوح وأن اسم أبيهم مازيغ، ليختم المسألة بقوله وهذا هو الصحيح الذي لايعدل عنه، وأن الإختلاف بين نسابة العرب ونسابة البربر أن العرب جعلوا كل القبائل مرجعها إلى البربر إلا ما كان من صنهاجة وكتامة بينما يرى نسابة البربر أن لواته هي فقط من أصل عربي، وهذا في رأي ابن خلدون أيضا غير صحيح وهي كلها مزاعم والحق عنده أنهم ليسوا من العرب [٢٧].

وقد يكون ماتبناه ابن خلدون نفسه محل شك ايضاً وسط الآراء المطروحة لكننا نعتقد انه الأقرب إلى واقع تلك الشعوب لكونه ابن البيئة التي انحدرت منها تلك القبائل، وإن جميع الآراء الاخرى لم يعضدها دليل قاطع يؤكد صحتها، ومن هنا فقد اشير إلى ان هذين الجذمين برانس وماذغيس قد كثرت بطونهم في بلاد البربر فولد برانس كتامة، وصنهاجة، وعجيسة، ومصمودة، وأوربة، وأزداجة وارويغ والاخير أولد هوار (هوارة)، وكل هؤلاء صاروا بطون عظيمة جداً، أما الجذم الثاني ماذغيس فقد أولد زجيك (زحيك) ومنه خرج ضرى، ولوى الكبير، ونفوس، واداس[٢٨] ومن هذه القبائل تكاثر البربر وملئوا الساحل والصحراء وانتشروا في كل مكان ليشكلوا بمكوناتهم عناصر أدت دورا تاريخيا كبيرا عبر العصور.

اما عن أصل التوارق الملثمين موضوع البحث فانهم بلا شك ينحدرون من سلالات لقبائل عدة وأرومات مختلفة تكونت لديهم عوامل الاجتماع والامتزاج [٢٩]، وإن الروايات الأكثر تداولا بين الباحثين هي انهم من أصول قبائل البربر، فذكر ابن خلدون انهم من صنهاجة الذين توطنوا القفر وراء الصحراء إلى الجنوب، اذ وجدوا فيها مرادهم واعتاضوا بلبن الانعام ولحومها، فاتخذوا اللثام خطاماً تميزوا به بين الامم، فصاروا بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، ومن قبائلهم كدالة، ولمتونه، ومسوفة، وزغاوة، ولمطة وغيرهم [٣٠].

واكد مؤرخ السودان عبد الرحمن السعدي هذا القول ايضا حين أشار إلى التوارق، ذاكرا انهم من قبيلة مسوفة الصنهاجية كبرى قبائل الملثمين الرحالة ظواعن الصحراء، الذين لايطمئن بهم منزلا وليس لهم مدينة يأوون اليها، مراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين مابين بلاد السودان وبلاد الاسلام [٣١] –يقصد شمال افريقيا.

ولعل السعدي وهو شاهد عيان متأخر أشار إلى وجود قبائل توارق مسوفة الصنهاجية في الفضاء الصحراوي الحاجز بين شمال افريقيا وبلاد السودان، مما يضع الباحث امام حقيقة الرأي القائل بقدم وجود هذه القبيلة وسيطرتها على هذه المناطق الصحراوية الشاسعة، بدلالة ما جاء على لسان الجغرافي ابن حوقل أحد أهم بلداني القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حين أشار إلى قبيلة مسوفة بوصفهم أدلاء الصحراء[٣٢]، ثم ماذكره ابن بطوطة رحالة القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ايضا من إن قبيلة مسوفة كانت تقوم بمهام مرافقة القوافل كأدلاء وتوفير الحماية لها[٣٣] مما يثبت بما لا يقبل الشك إن التوارق الملثمين فرضوا وجودهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي وسيطروا على طرق الصحراء لقرون عدة.

كما أشار ابن خلدون في موضع آخر أن قبيلة هوارة ومن دخل معهم كانت بنواحي طرابلس ومايليها من برقة، وهم ظواعن وآهلين ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا حدود بلاد لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو [٣٤] من السودان تجاه افريقية إذ يعرفون بنسبهم لمنطقة هكارة (هقارة أو هجارة) [٣٥]، وهذا اللقب اشتهر به التوارق ولازمهم [٣٦].

وفي سياق متصل أشار أحد الباحثين أن التوارق خليط من عناصر البربر امتزج عبر المراحل التاريخية بعناصر عربية هاجرت إلى هذه الاماكن فشكلوا بهذا الامتزاج

مجموعات التوارق التي سيطرت على طرق التجارة الصحراوية وواحاتها في المراحل اللاحقة (٣٧).

ويبدو أن هذا الرأي هو خلاصة جميع الآراء التي جاءت كوصف لأصل التوارق فاتفقت فيما بينها على أنهم من قبائل البربر البيضان الذين اختلطت دمائهم عبر التاريخ بعناصر أخرى عربية وزنجية فصارت بشرتهم تميل إلى السواد، أما ما ذكره المستشرقون من أنهم من أصول جرمنتية (٣٨) التي ترجع بالأساس إلى العناصر الأوربية التي سكنت هذه المناطق منذ قرون بعيدة فهو مجرد رأي لا يعضده دليل قاطع بيد أن هناك عناصر أخرى سكنت نفس المناطق من غير الأصول الجرمنتية، ولم يؤثر على الجرمنتيين ارتداء اللثام ولذلك فان هذا القول لا يعدو رأيا حاول تكريس الفكر الاستعماري الأوربي.

لقد تمكنت قبائل توارق الصحراء من فرض سيطرتها على الصحراء عن طريق استغلال الجمال للتنقل داخل البوادي المقفرة برغم ما يرافق هذه العملية من صعوبات كبيرة خاصةً في مسألة تربية الجمال وسط فيافي تفتقر إلى ابسط مقومات الحياة، وعن طريق ذلك تمكنوا من السيطرة على طرق التجارة الصحراوية مع بلاد السودان من جهة الغرب ثم تواصل انتشارهم ليشقوا طرقاً جديدة اخرى يبدا الأول منها من غرب الجزائر وينتهي إلى حوض نهر النيجر، والثاني يبدا من طرابلس وينتهي إلى بحيرة تشاد، فصاروا يتوزعون في محورين شرقي يبدا من فزان حتى نهر النيجر وغربي ينتهي إلى حدود نهر السنغال(٣٩)، وفي هذا الحيز المكاني شكل التوارق عناصر فاعلة في حركة تاريخ الصحراء الكبرى اذ يرجع لهم الفضل في تأسيس مدن صحراوية مثلت محطات مهمة في التجارة انذاك، من بينها مدينة (غات)(٤٠)التي كانت الموطن الأول لتوارق (ازجر) فكانت محطة رئيسة للتجارة مابين طرابلس والسودان الغربي والأوسط، وسوقاً تجارية ضخمة لقبائل الصحراء في فزان وتوات(٤١)، كما قام توارق (مقشرن) في تأسيس مدينة (تنبكت)(٤٢)في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، اذ اتخذوها مرتعاً لهم وخزانة لمتاعهم وزرعهم في فصل الخريف حتى صار مكانها مسلكاً للتجار في ذهابهم ورجوعهم، إلى ان ازداد الناس فيها من مختلف قبائل صنهاجة فتحولت تدريجيا إلى سوق كبيرة للتجارة ياتيها التجار من كل البقاع من مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة(٤٣)، فعمرت مدينة كبيرة ذات اسوار وبيوت ومساجد(٤٤).

٣- اصل التسمية

يؤشر موضوع تسمية التوارق بهذا الاسم اختلافاً كبيراً بين أوساط المؤرخين والباحثين، ولم يكن هنالك اتفاق على رأي واحد، بيد أن تعدد صيغة اللفظ بالأصل دليل ماثل يعكس هذا الأختلاف، وإذا كانت تسميتهم بالملثمين محل اتفاق نسبة لما يرتدوه من زي يغطون به وجوههم وهو صفة ظاهرة عليهم، فإن تسميتهم بالتوارق تكاد تكون لغزاً استشكل على الباحثين حله، لذلك فقد جاءت الآراء بهذا الشأن مختلفة، وهي لا تتعدى في مضمونها عن تكهنات وتخمينات من جانب هؤلاء الباحثين أنفسهم.

فقيل في أصل التسمية انما جاءت نسبة لقبيلة من قبائل صنهاجة الخلص تعرف بـ (ترجه) [٤٥] التي لفظت في بعض الاحيان بـ (تركه) وهم فصيل من الملثمين القاطنين في المناطق الواقعة مابين سجلماسة واغمات، وهذا ينسجم فيما يبدو مع ما جاء على لسان الرحالة الحسن الوزان الذي ذكر لفظة (تاركه) بوصفها نسبة إلى الشعب الذي يسكن المنطقة المحصورة بين تغازة غرباً والآبير شرقاً، اذ يسرد محقق الكتاب معنى هذا اللفظ قائلاً أن تاركه قبيلة من قبائل صنهاجة الصحراء ينسب اليها بنسب (تاركي) والجمع (توارك) ثم حرف على لسان المؤرخين العرب إلى (طوارق) [٤٦]، ولعل هذا الرأي يحمل جانباً من الصحة الا انه لايمكن القطع بدقته، وذلك لان هناك من فسر كلمة (ترجه) أو (تارجا) على انها تعني (الصحراء) في لغة البربر، وهناك من أكد على أن تسميتهم جاءت نسبة للمكان الذي سكنوه وسط الصحراء، فقيل انها جاءت نسبة إلى وادي درعة الذي مثل موطن هذه القبائل منذ القدم فكان يقال لهم دوارع ثم تغير إلى توارغ بالغين، ثم إلى توارق بالقاف[٤٧]، وعند مقاربة النصوص الواردة نكتشف ان هناك لبس واضح وقع فيه اغلب الباحثين ما بين النسبة إلى اسم قبيلة أو إلى المكان نتيجة اختلاف اللهجات التي ورد فيها هذا اللفظ، واذا ماعلمنا ان وادي درعة يعني في اللغة التارقية (تاركا) فان هذا اللبس يزول تماماً فيكون لفظ التوارك مأخوذ من المكان الذي يقيمون فيه والفراغ الذي ينتجعون، ولعل تداول اللفظ بغير اللسان التارقي غير من صيغته قليلا فلفظتها الالسن (توارق) و (طوارق) [٤٨]، ومما يعزز هذا الرأي ان تسميتهم بحسب لهجتهم (اموهاغ) تعني أهل تاركا نسبة إلى منطقة تاركا نفسها، التي شكلت قديما محطة التقاء القوافل التجارية، ومع اختلاطهم بمختلف التجار اطلق عليهم اسم التوارق والذي يعني أهل تاركا[٤٩].

أما عن ابن خلدون فانه يعطي للتسمية بعداً دينياً ويلقي بذلك على عاتق العرب فذكر ان اسم التوارك لفظ أطلقه العرب عليهم لتركهم الاسلام في القرن الأول، وأشار إلى ان البربر ارتدوا عن الاسلام أكثر من اثنتا عشرة مرة [٥٠]، ومع تصديقنا بما ذكره ابن خلدون حول ارتداد البربر الا انه لايمكن الركون إلى ان التسمية الصقت بهم نتيجة فعل الارتداد لان الأولى ببساطة تسميتهم بالمرتدين على وفق ما اشتهر هذا اللفظ في صدر الاسلام.

وذكر من بين جملة الاراء بأنهم سموا بذلك لأنهم نزحوا من مناطق الساحل باتجاه الصحراء نتيجة ضغط القبائل فتركوا أوطانهم اتقاء الشر حفاظا على أنفسهم فقيل عنهم انهم (توارك) لتركهم المكان [٥١]، وهذا الرأي لايمكن قبوله بدليل انهم انتقلوا مرة اخرى إلى الشمال بعد تأسيس دولة المرابطين فحافظوا على تسميتهم نفسها، ولم يطرأ عليها تغيير؛ كذلك ذكر بان التسمية جاءت نسبة إلى القائد طارق بن زياد، وهذا الرأي لا يصمد امام الواقع لان كل ما يرتبط به هو مجرد تشابه الاسم والنسب بوصف أن طارق بن زياد من أصل امازيغي.

ومن الجدير بالذكر ان هناك اراء كثيرة وردت في هذا الشأن لكننا ارتينا عدم التطرق اليها لانها تدخل في باب الاساطير والخرافات، ولذلك نخلص إلى القول بأن مايمكن ترجيحه في أصل تسميتهم بالتوارق انهم نسبوا إلى المكان الذي عاشوا فيه وتوطنوا ثم تمددوا شرقاً وغرباً في عرض الصحراء مع احتفاظهم بنسبهم القبلي إلى صنهاجة.

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية للتوارق وأحوالهم العامة

إن حياة الانسان على وجه البسيطة مرت بمراحل وتجارب، اعقبتها تطورات تدريجية غيرت من نمط الحياة الاجتماعية وبيئتها، فعندما قرر اتخاذ السكن لجأ إلى الكهوف لتكون مأمناً له يتقي فيها من المخاطر، ثم اخذ يبحث عن الألفة مع غيره مما أوجد تطوراً جديداً اسهم في ظهور القرى المبنية من الاكواخ، بعدها حصل تطوراً آخر بدأ جلياً في ظهور البيوت وتأسيس المدن، وهذه التطورات هي صبغة الوجود الانساني التي وجدت معه بالفطرة ومن هنا جاز لنا القول ان البنية الاجتماعية في البيئة الصحراوية مرت بأدوار عدة برغم من انها بطيئة التغير وتمسكت بنفس النهج الماضي لسنوات طويلة الا ان ذلك لم يمنع من حدوث تغير طفيف على المستوى الحياتي أو المعاشي لذلك فقد نرى اختلافاً طفيفا في بعض الجزئيات التي تخص الحياة الاجتماعية للتوارق ونقصد هنا طبيعة التركيبة

الاجتماعية واللغة، وشكل المساكن التي يقطنونها، وانواع الملابس التي يرتدونها، ونوع الطعام الذي يتناولونه، ومن المؤكد ان ذلك يعتمد على طبيعة تلك البيئة نفسها، لكنها وان كانت كذلك فان التشابه يكاد يكون السمة البارزة في مجمل الحياة العامة.

١-البنية الاجتماعية

تتمثل البنية الاجتماعية عند التوارق بوضوح المكانة لفئات المجتمع وهو وان تشابه من حيث اصل الفكرة مع المجتمعات الاخرى الا ان ما يميز مجتمع التوارق ان التقسيم الطبقي جاء على وفق فلسفة اجتماعية جعلت من نقاء الدم الاساس في الرابطة الاجتماعية التي على ضوئها يتم تقسيم العناصر إلى طبقات متباينة، فضلاً عن عامل اللغة التي ميزتهم عن غيرهم ايضاً، إذ يتألف المجتمع التوارقي من مجموعات قبلية عدة، عاشت منتشرة في الصحراء يرأس كل منها شيخ أو زعيم يعرف في اللغة التوارقية بـ(امغار) والتي تعني الكبير، ثم تنضوي جميع هذه القبائل تحت راية زعيم أكبر يدعى (امنوكال)، وتعد آصرة الولاء للقبيلة من أشد الأواصر التي يتمسك بها التوارق، فقد مثلت بالنسبة لهم إرثاً حضارياً قديماً توارثته الاجيال عبر القرون، لذلك كان الدفاع عن القبيلة وحمايتها والاستعداد للتضحية من أجلها من أهم سمات المجتمع القبلي التوارقي، ويقوم نظام القبيلة على وجود هرم طبقي اجتماعي، يكون في أعلى قمته طبقة السادة الانقياء، الذين لم تختلط دماؤهم بدماء الأجناس الاخرى، فعرفت هذه الطبقة في لغتهم بـ (ايموشاغ) أو (ايموهاغ)، وقسمت بين ثلاث قبائل هم قبائل الهكار نسبة إلى منطقة جبال الهكار جنوب الجزائر، والقسم الثاني هم قبائل آزجر نسبة إلى منطقة الوادي المحصور بين غدامس وغات، والقسم الثالث قبائل (كل اضغاغ) وتعني اهل الجبال نسبة إلى جبال منطقة ادرار عند حدور النيجر ومالي، أما الطبقة الثانية فتعرف بـ (امغاد) وهم الذين اختلطت دمائهم بعناصر سودانية فصاروا على إثر ذلك سود البشرة، أما الطبقة الثالثة وهم الصناع والحرفيين الذين عرفوا بـ (اينهضن) وهؤلاء من أصول مجهولة، فقيل إنهم من الأحباش وقيل من النوبة بل وصفهم البعض بإنهم من الغجر، أما الطبقة الرابعة فهم العبيد والرقيق الذين عرفوا باسم (ايكلان) [٥٢].

هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، فقد اعتمد البناء الاجتماعي عند التوارق على نظام الاسرة الذي يعد التنظيم الاجتماعي الاصغر في المجتمع التوارقي القبلي، اذ مثلت عصب الحياة والشريان الذي ينبض بروح المجتمع وديمومته، لذلك وقع على عاتقها

مسؤوليات كثيرة تقاسمها الابوان فيما بينهم لتحمل عبء الحياة المعيشية فكان الرجال في ترحال دائم بحكم الاعمال المنوطة لهم في حماية القوافل التجارية المارة بأرضهم، وتحملت النساء الجزء الأكبر في تربية الأولاد ولذلك فقد حظيت المرأة بمكانة خاصة لدى شعوب التوارق منحتها صفات مميزة(٥٣)، وهذا ما أكده ابن بطوطة إذ صرح علانية بإن نساء التوارق هن أعظم شأناً من الرجال(٥٤)، ولهذا القول دلالة فريدة تشير إلى أن المرأة التارقية تتمتع بحرية تامة في اختياراتها وقراراتها وعدم التزامها باشتراطات الأعراف القبلية المتعارف عليها في مجال علاقاتها، ففي موضوع الزواج مثلاً تمتلك المرأة حرية اختيار الزوج وحرية الانفصال عنه، ولها الحرية في ممارسة بعض الأعمال كالتجارة مثلاً، كما لا تتقيد بعرف أو دين في مسألة الحشمة وارتداء الحجاب، فضلا عن اتخاذها الاصحاب من الرجال وهي ظاهرة تعد طبيعية في عرف قبائل التوارق، في الوقت الذي يعد التلثم حكرا على الرجال فقط بل يعد أمراً ملزماً وهذا ما سنأتي على ذكره في سياق البحث، وعلى وفق ذلك فقد احتلت المرأة التارقية مكانة عليا جعلت منها أساس النسب لذلك نجد الابناء ينتسبون إلى امهاتهم في عرف ساد وسط تلك القبائل (٥٥) وقد أشار النويري إلى ذلك بقوله:" ان جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون: ابن فلان"(٥٦)، لذلك فقد شكلت المرأة التوارقية عنصراً مهماً في التجارب السيوسوثقافية والمواقف الاجتماعية.

٢-لغة التوارق

أما بالنسبة للغة التي يتحدث بها التوارق فهي تعود بالأصل إلى اللغة البربرية القديمة التي تسمى (تاماهاغ) أو (تاماجاك) أو (التلماشق) (٥٧)، وعلى الرغم من وجود لهجات عدة يتحدثون بها إلا أن هذه اللغة هي من أكثر اللغات انتشارا حتى وقتنا الحاضر، اما عن حروفها فهي متأصلة في الجذور القديمة وتسمى بـ (تيفيناغ)، ولذلك نجدهم يكتبون بقلم خاص بهم لا يشاركهم به غيرهم من الساكنين بجوارهم سواء من العرب أو السودان(٥٨)، فقد وجدت آثار منقوشة على الصخور في وسط الصحراء، بهذه اللغة وحروفها التي يعتقد بانها قد تكون استعارة من الابجدية الفينيقية، أو ربما تنحدر من اللغة السامية القديمة، وبغض النظر عن الآراء التي ذهبت في انتماء هذه اللغة فإن ما يعزز وجودها وأصالتها ما وجد داخل الكهوف منقوشاً على الصخور(٥٩).

٣-مساكنهم

عاشت قبائل التوارق وسط الصحراء كبدو رحل متنقلين لا يستقرون في مكان، لذلك اختلف شكل مساكنهم من مكان إلى آخر، فقد سكن بعضهم الخيام المصنوعة من وبر الابل، ومن الياف نباتية كانت تنمو وسط الصحراء، وبعضهم الآخر كان يصنع خيمته من صوف الغنم وجلد الماعز يشدها إلى بعضها ليكوّن منها بيتاً له ولعائلته وعادة ما تكون مفروشة بالحصر المحاكة من الخيزران الناعم جداً[٦٠] وهناك من تمكن من بناء البيوت وسط الصحراء مثلت مع مرور الزمن محطات توقف واستراحة للقوافل التجارية، اذ كانت مبنية من اعواد الخشب الشاخصة يضعون عليها الحصر وفوقها اعواد رفيعة متشابكة ثم يلقون فوقها جلود الابل أو اقمشة القطن[٦١].

٤-الملابس والازياء

اما عن اللباس والازياء فإن التوارق تميزوا عن غيرهم من شعوب افريقيا فيما وراء الصحراء بلباسهم وازيائهم فقد كان زي الرجال عبارة عن ملاحف يلبسون تحتها السراويل الفضفاضة وكذلك يرتدون الدراريع واللثام ويتزينون بالسيوف والحراب، ويضعون فوق رؤوسهم العمائم وكانت اغلب ملابسهم باللون الازرق[٦٢] ، الذي تحول مع الزمن إلى تعبيرات رمزية ذات دلالة وجدانية، فقد عبر اللون الازرق عن زرقة السماء وهو دلالة عن الصفاء في بيئة الصحراء الذي يرمز إلى السلام، وكذلك عبر عن لون الماء الازرق الذي يرمز إلى النماء والنقاء، ولذلك نجد هذا اللون سائدا في مجتمع التوارق لذلك اطلق عليهم نسبة لذلك بـ (الرجال الزرق)، وكان البعض منهم يرتدي اكسية ضيقة (فوطة) من الصوف الخشن، ويضع فوق رأسه قطعة قماش سوداء يلفها حول وجهه كالعمامة، اما الوجهاء والاعيان فيرتدون قميصاً طويلاً ذا اكمام عريضة من قماش القطن الازرق تميزا لهم[٦٣]، اما بالنسبة للنساء فقد تميزن بزيهن البسيط الذي يتألف من ملحفة تلبس تحتها إزار وهي مكشوفة الرأس والجيد واليدين، وكذلك ترتدي بعضهن الدراعة الواسعة التي تصل إلى ما دون الركبتين تحتها إزار من نوع اخر من القماش، وبعضهن تضع على رأسها وشاحاً يضفي عليها ميزة جمالية [٦٤] وقد وصفهن ابن بطوطة بانهن يتمتعن بالجمال البالغ والصورة البديعة، والبياض الناصع والسمن [٦٥]، ويرتدي التوارق الصنادل المصنوعة من الجلد يطلق

عليه (النعل)، تكون قادته مصنوعة من جلد البقر والاشرطة الرابطة للقدم من جلد الماعز، وتكون عريضة بعض الشيء ومريحة لتكون مكيفة للسير في رمال الصحراء[٦٦].

٥-دلالة اللثام

من المؤكد ان الأزياء تحمل بعداً ثقافيا يعكس مظاهر التحضر من جهة، والظروف التي تفرضها البيئة من جهة أخرى، وهي بذلك تتجاوز وظيفتها الرئيسة لتتحول إلى رمزية، أو سمة خاصة بشعب من الشعوب فتمثل مرآة، تعبر عن عمق التقاليد والتأثيرات الثقافية، ومع انها عادة ما تكون نتاج تلاقح ثقافات وافدة، الا ان ما تميز به التوارق سكان الصحراء من اتخاذهم اللثام كان يحمل الهوية الثقافية الخاصة، فهو لم يتأثر بالطابع الثقافي للشعوب المجاورة، وانما كان موروثا ثقافيا تقليديا فرضته ظروف الحياة في الصحراء منذ قرون بعيدة، والتزمت به عناصر المجتمع، فكان مظهرا من مظاهر الهوية القومية، وترسيخ للعراقة والتراث، ونمطا للحياة يتوافق مع واقع البيئة.

وقد اثير حول اللثام اساطير وقصص شعبي وردت في المصادر التاريخية فجاء ذكره ووصفه على لسان المؤرخين الرواد أمثال اليعقوبي[٦٧]، وابن حوقل[٦٨]، والبكري[٦٩]، وابن عذاري[٧٠]، والنويري[٧١]،وغيرهم كثير، وكلهم اجمعوا على ان اللثام سنة فيهم يلتزمونه وينشؤون عليه ولا يفارقوه وهو خاص بالرجل دون المرأة، إذ يحرص على التنقب فيغطي وجهه ولا يظهر منه سوى محاجر عينيه، بينما المرأة تكون مكشوفة الوجه وربما ظاهرة الشعر، ووفق ذلك فإنه يستبعد ان يكون له بعد ديني أو فرض من الشريعة، ويستبعد أيضا الرأي القائل بانه جاء تلافيا لمواجهة رمال الصحراء التي تذرها الرياح اثناء العواصف.

جاء في ذكر الأسباب التي دعت قبائل التوارق إلى التلثم انهم يصفون الفم بالعورة، وانه لابد الا يكشف ابدا حتى اثناء تناول الطعام فهم يزيحون اللثام ثم يرجعونه بعد وضع الطعام في الفم، وقيل انهم يعيرون الرجل إذا كشف عن فمه بانه (أبو الذبان)، ويرى الباحث ان هذه الأسباب غير معقولة ولا تمت للواقع بصلة لأنهم ببساطة أناس مسلمون يعرفون الشرائع ويميزون بين الحلال والحرام، وعليه فانه لابد من ان هنالك دافعا أكبر وراء ارتدائهم اللثام؟

وقد جاء من بين التفسيرات قصة مفادها انهم تعرضوا إلى غزو من قبل احدى القبائل اثناء غياب رجالهم خارج القبيلة، الامر الذي دفع الشيوخ، إلى الطلب من النساء

ارتداء ملابس الرجال واللثام وحمل السلاح، فلما اقترب العدو رأى جمعا عظيما من المقاتلين فهالهم ذلك، فترددوا وقرروا سوق النعم فقط والهرب ولكنهم تفاجئوا بعودة الرجال من خلفهم فاشتبكوا معهم ووقعت فيهم مقتلة عظيمة، ومنذ ذلك الحين التزم الرجال اللثام تمينا وفخرا بهذا الانتصار، وعدوه زياً رسمياً للرجال دون النساء في إشارة إلى الموقف البطولي الذي لعبته المرأة التارقية في تلك الحادثة.

ويرى الباحث ان هذا التفسير هو أقرب التفاسير إلى الواقع بيد انهم منحوا المرأة كامل الاحترام والتقدير والتبجيل، وخصوها بموضوع الانتساب اليها، ومنحوها الحرية في اتخاذ القرار والمشاركة في صنعه، والاشراف على المنزل، واختيار الزوج، وتدبير شؤون الاسرة وغيرها من الأمور.

٦-الطعام والشراب

يتنوع طعام التوارق وما يتناولونه في وجباتهم بحسب المناطق وما يتوفر فيها من ارزاق لكن الشيء المشترك عندهم هو الحليب الذي يعد الوجبة الرئيسة، اذ يشربونه صباحاً ومساءً، وهو كثير عندهم يخلطونه بجريش الذرة من دون طبخ أو يشربونه ساخناً حال حلبه من الضرع، اما في باقي الوجبات فياكلون اللحم المقدد سواء أكان لحم ضأن أو ابل مقلياً أو مشوياً أو منقوع بالحليب والسمن، وفي المناطق المحاذية لبلاد السودان فان اكلة الانلي المجلوبة من هناك هي السائدة، في حين يأكل بعضهم الجراد الذي يكثر في مواسم معينة فيخزونه كما يخزنون التمر، كما تشتهر عندهم بعض الفاكهة كالتفاح والخوخ والمشمش والبطيخ، ويثمر في ارضهم الفقوس فاذا طاب انفلق عن شيء اشبه بالدقيق يطبخونه ويأكلونه، كما ينمو ايضا في ارضهم نبات يخرج من الارض اشبه بالفول فيقلونه ويأكلونه وطعمه يقارب طعم الحمص، ومن عاداتهم ان يكرمون ضيوفهم فكانوا يدخرون القمح وهو قليل عندهم إلى الضيوف الغرباء والتجار، ويقدمون لهم الآنلي المخلوط بقليل من العسل واللبن، ويذبحون لهم الخراف الصغيرة ويقدمونها مشوية أو مسلوقة متبله بالأعشاب المجلوبة من بلاد السودان والخبز المصنوع من دقيق الذرة البيضاء والدخن، اما التحلية فهي التمر الذي يقدم بانية كبيرة مليئة بالحليب [٧٢].

المبحث الثالث: احتفالات التوارق والموسيقى والغناء

اتسمت المناطق الصحراوية في افريقيا التي تسكنها قبائل التوارق بموروثات ثقافية وفنية شملت جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة، ومن بينها الموروث الفني الذي يختص بالاحتفالات والمناسبات وما يصاحبها من موسيقى، وغناء، ورقص، يضاف إلى ما تميزوا به من صفات أخرى كالجلد والقوة، والبسالة، والجرأة، ومهارة ركوب الابل وسياقها، والخفة في الجري، والمعرفة التامة بأحوال الصحراء والدلالة، وفي ارتدائهم اللثام دون غيرهم(٧٣)، كل هذه الموروثات شكلت تراثاً غنياً من العادات والتقاليد التاريخية القديمة تميزوا بها عن غيرهم من بين شعوب افريقيا جنوب الصحراء على الرغم من التقارب المكاني واشتراكهم في بعض الخصائص.

وقد اختلفت الآراء في أصل نشأة هذه الموروثات الثقافية والفنية وانتاب الغموض معرفة اسباب ظهورها، إذ يرجح ان جذورها استمدت من الفعاليات التي كانت تصاحب الطقوس الدينية التي يمارسها التوارق ويقدسونها في مواسم معينة(٧٤)، وان الغناء والرقص، والموسيقى المؤداة من بين التراث الثقافي الذي يحمل طقوسا شعائرية، ارتبطت بالاحتفالات فهي نسيج متشابك من العادات والتقاليد المنبثقة من صميم الفكر الديني الذي مارسته الأجيال عبر العصور، ومثلت تعبيراً عن روح الجماعة وعن القيم الجمالية الشعبية للمجتمع التارقي، وصورة من صور انصهار القيم الاجتماعية في الارث الحضاري العميق(٧٥)، ومن دون ادنى شك فان تلك الفعاليات والموروثات الثقافية والحضارية لم تأتي من فراغ انما جاءت بتأثير احتكاك العناصر البشرية مع بعضها البعض، وذلك من طريق الهجرات التي قامت بها القبائل عبر العصور، ومن طريق التجارة التي شكلت عامل تبادل متعدد الأوجه، أو من طريق الغزو والحروب وفرض الهيمنة من قبل العناصر الاجنبية، لذلك فان انتقال الموروث الفني الغنائي والموسيقي للتوارق قد تأثر بشكل كبير بما نقل من مظاهر حضارية أتت من اماكن مختلفة، فبعضها جاء مع عناصر نزحت بشكل جماعي هربا من وقائع وحروب مدمرة، أو رغبة في البحث عن موطن جديد، أو غزوا استعماريا تمكن من البلاد، وهذا ما دللت عليه الحفريات والاثار في بلاد البربر الملثمين والتي كشفت عن وجود تأثيرات شرقية سومرية وبابلية، بل واكد أكثر من باحث وجود تأثيرات فارسية قديمة في الموسيقى الصحراوية والاغاني وبعض الأدوات، والاسماء وبعض المفردات اللغوية المشتركة، وطريقة العزف على آلة الصنج(٧٦)، بل أشير إلى وجود تأثيرات مصرية(٧٧) وفينيقية نتيجة نزوح

العناصر التي كانت تقطن الساحل بفعل الهجمات الرومانية، ووجود تأثير عربي واضح في الفن الموسيقي والغنائي قدم من طريق بلاد السودان الشرقي، والصحراء والساحل الذي يواجه اليمن وما عرف عن تلك البلاد من كثرة تجارتها وتجارها، وهجرات قبائلها من العرب(٧٨)، وقد وردت إشارات عدة في مصادر التاريخ جاءت على ذكر آلات الطرب والغناء والموسيقى عند قبائل الصحراء وهي تعطي دلالة على غنى الموروث الثقافي لسكان الصحراء وطبيعتهم المحبة للفن والرقص والطرب(٧٩)

وبما ان الغناء والرقص والموسيقى في الأصل تعبير عن نشاط اجتماعي يعكس مظاهر المجتمع وصوره المختلفة، فهو بذلك يمثل هوية المجتمع الثقافية والحضارية، لذلك نجد التوارق يمارسون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية في المناسبات المختلفة، فهم يغنون اثناء رعي للأغنام والماعز، واثناء الذهاب لجلب الماء، واثناء تجوالهم في الصحراء وهم يمتطون ظهور المهاري لطرد الملل والنعاس في ليالي الصيف وسط الصحراء، كذلك الحال بالنسبة للمرأة فهي تعزف على الامزاد في الافراح والمناسبات وترقص متمايلة وتغني بأعذب الالحان (٨٠).

ويطرح الدكتور هادي المبروك الدالي سؤالا عن سبب في انتشار فن الغناء والرقص في البيئة الصحراوية؟

ليستدرك في الإجابة بان الفراغ القاتل في البيئة الصحراوية يدفع بالإنسان إلى التفكير في محاولة ملئه، اذ تسهم تلك البيئة في انتاج الابداع الفكري، لذلك نجد الرجل الصحراوي ينسج الأغاني اثناء رحلته في رعي الأغنام من باب الشعور بالأنس، وسد الفراغ، وفرحا بعودته وسلامة مواشيه (٨١).

ولعل أكثر ما اتفق عليه في هذا المجال هو ان هناك علاقة حميمة، بل وعشق ان جاز التعبير بين التوارق والغناء والموسيقى والرقص، فهي تمثل علاجا يخفف عنهم ضغط البيئة التي يتواجدون فيها، فقد عرف عنهم حبهم الشديد للغناء والرقص وابتداع الأغاني والرقصات التي تنسجم وما يشعرون به، فهم يرقصون ويغنون في الافراح، ويرقصون ويغنون عند الغضب او عن الذهاب إلى الغزو (٨٢).

ومن هنا يمكن الاستنتاج بإن الموسيقى والغناء، والرقص عند التوارق كانت تمثل تعبيراً عن الانفعالات الحسية والنفسية، وهي تنفيس عن الافكار وتجسيدها، فهي تمثل مخرجاً دلالياً يعكس ثقافة المجتمع التارقي الذي يستوطن الصحراء(٨٣)، وهو مرتبط بأصلين متناغمين، الأول بالطقوس الدينية ومظاهر التعبد، والثاني هو الفعاليات الجسدية المرتبطة بالعمل اليومي(٨٤)، ويتظاهر هذين الاصلين الروحي والمادي في تحديد منشأ الموسيقى والايقاع والغناء عند التوارق اي ان هذا الارث الثقافي لم يكن سوى وليد البيئة ويمثل انعكاساتها للواقع حيث يرتبط بسمات المجتمع والحياة القبلية ويجسد بوضوح ملامح نظامها الاجتماعي(٨٥).

أولا: المناسبات العامة التي تقام فيها الاحتفالات

الاحتفال هو من الوسائل التي يعبر فيها الفرد عن الفرح لمناسبة ما، سواء كانت دينية أو اجتماعية أو ترفيهية، وانها تتضمن مراسيم معينة من ضمنها الغناء(٨٦)، والرقص والعزف على الآت الموسيقية، وان الاهتمام بإقامة الاحتفال هو تعميق للروابط القبلية لمجتمع التوارق وتعزيز العلاقات التي تزيد من قوة التلاحم والانصهار، وعلى الرغم من البيئة الصحراوية التي يقطنها التوارق، الا انهم تميزوا بطابع التحضر في اقامة مراسيم الاحتفالات، منها الاحتفالات الخاصة بمناسبات دينية، أو الاحتفالات الخاصة بالمناسبات العامة، أو الاحتفالات الاجتماعية الخاصة، مثل الاحتفال بالزواج والختان، كذلك حفلات الجلسات والسهرات الليلية التي تتميز بالرقص والغناء والسمر، ورقصات الفرسان، فضلا عن الطقوس الخاصة التي تقام فيها احتفالات معينة منها طقوس تخليص القمر من الساحرات عند خسوفه(٨٧).

١-الاحتفال بعيدي الفطر والاضحى

ان الصبغة الاسلامية التي تطبع بها التوارق منذ القدم، جعلتهم يحرصون على اقامة الشعائر واحياء مناسبات الأعياد، فهم محتفظون بمذهبهم المالكي منذ أيام دولتهم التي أقامها عبد الله بن ياسين الجزولي والتي عرفت تاريخيا بدولة المرابطين، فكان الاحتفال بعيدي الفطر والاضحى لهما مراسم خاصة في المجتمع التارقي، وان أهم ما يميز ذلك الاحتفال انهم يبدؤون يومهم بالذهاب إلى المسجد مرتدين الملابس الجديدة، وبعد الانتهاء من الصلاة يقومون بذبح الشياه استعدادا لاحتفال المساء (٨٨)، اذ ينطلق الاحتفال بسباق

الخيول والابل التي يمتطيها الشباب المتحمس على وقع ضرب الطبول في جو من التنافس، وفي المساء يجتمع الرجال والنساء حول النيران المتوهجة في الليالي المقمرة ليبدأ الغناء والموسيقى والرقص [٨٩].

٢-احتفال عاشوراء

يعد واحدا من المناسبات التي يحتفل بها التوارق والذي يصادف يوم العاشر من شهر محرم الحرام، اذ يرجع بأصوله إلى حقب قديمة تعبر عن الهوية الدينية لقبائل التوارق، فهو مستمد من أرث تاريخي عميق، يتم فيه استحضار المواقف التاريخية والاحداث العظمى، لذلك حاز على اهتمام بالغ من قبلهم فاطلقوا عليه اسم (سبيبا) [٩٠]، وقد اختلف في في أصل وجوده، فمنهم من عده احد افرازات الحكم الاموي، اذ يحتفل به التوارق بالتجمع وسط المخيم يتقدم الحاضرين حاملي الطبول وعازفي المزامير تحدوهم في ذلك اعتقادات بحدوث اعمال جليلة في هذا اليوم روج لها الامويون في محاولة منهم لطمس أهم حدث في التاريخ، وهو مقتل سبط الرسول الامام الحسين عليه السلام وأهل بيته الكرام في موقعة كربلاء الأليمة الذي صادف في اليوم العاشر من محرم سنة ٦١هـ.

لذلك نجد التوارق ينقسمون إلى قسمين في التعبير وممارسة طقوسهم في هذا الاحتفال، فكان كبار السن يصومون في هذا اليوم [٩١]، ويقرؤون القرآن ويقيمون المدائح النبوية، ويجلسون يتدارسون سيرة النبي صلى الله عليه واله، وسيرة اهل بيته الكرام، ولعل ذلك جاء من الموروث الإسلامي الديني للدولة الفاطمية التي حكمت المغرب ومصر وبلاد الصحراء [٩٢]، ثم يتجمعون يتقدمهم حاملي الطبل والمزمار لزيارة المقابر والترحم على أرواح امواتهم، فيمشون بلا قناديل نحو المقابر، اذ ترتفع أصواتهم بصيحات حزينة موحشة، مادين أذرعهم في مستوى افقي، ورقابهم منحنية إلى اكتافهم، ليشكل هذا المنظر اللوحة الحزينة ليوم لعاشر من المحرم، اما في اليوم الثاني والثالث فان الوضع يتغير تماما، اذ يرتدي التوارق ملابسهم الانيقة ويشرعون بالاحتفال وسط انغام الموسيقى والغناء والرقص المتزن الانيق [٩٣]

٣-الاحتفال بالمولد النبوي

تحتل مناسبة المولد النبوي الشريف مكانة مقدسة لدى قبائل الصحراء عموما، وقبائل التوارق خصوصا، اذ دأب المجتمع التارقي على احياء هذه المناسبة كل عام منذ

العهد الفاطمي في المغرب، فتبدأ التحضيرات والمراسيم قبل يوم ١٢ ربيع الأول في كل عام، فتستقطب الزوايا المنشرة في البلاد الصحراوية وقصورها الناس لإحياء هذه الذكرى، اذ تقام مجالس الذكر والسيرة والتمجيد بصفات النبي صلى الله عليه واله واخلاقه، وينشغل المجتمع التارقي بتوزيع الطعام والحلوى، بينما تنفرد النسوة في حلقات بعيدا عن الرجال، ليحيين الحفلة بالرقص والغناء على انغام الدفوف يتغنين بأغاني تمدح الرسول وتمجد اخلاقه وصفاته [٩٤].

٤-احتفالات تمثل روح المجد للمعارك السابقة

وهي تقام بمناسبة ذكرى المعارك التي انتصرت بها القبائل، اذ كان التقليد المعمول به ان يضع الرجال القفة على الجمل التي تسمى (الباصور)، وتكون مزدانة بالشرائط الملونة، فيقوم الرجال بالتمثيل في حلقة من القتال من فوق ظهور خيولهم، فتشهد النساء لهم بالتشجيع والحماسة عن طريق إطلاق الزغاريد [٩٥].

٥-احتفال تنصيب (الامنوكال)

وهو من الاحتفالات الهامة في مجتمع التوارق، اذ تقام مراسيم خاصة بهذه المناسبة تبدأ بقراءة القرآن من قبل الفقهاء، وتنتهي بالعزف والموسيقى والرقص والغناء وتوزيع الطعام [٩٦].

ثانيا: الحفلات الاجتماعية الخاصة

١-حفلات الاعراس

إن للتوارق كغيرهم من الشعوب طقوسا وعادات قديمة موروثة، تمارس في حفلات الاعراس والزواج، فهم يهتمون بها اهتماما بالغا، اذ تعد من التقاليد الأساسية التي يسعون إلى تطبيقها في حياتهم الاجتماعية، فتبدا أولى المراسيم بالخطبة، وتجري العادة على طلب يد العروس من قبل والد العريس وأقاربه، وتقوم النساء بنفس الدور مع والدة العروس، ليتم الاتفاق على المهر وباقي التفاصيل وصولا إلى حفل الزفاف التي تستمر لثلاث ليال متتالية، تتخللها الزغاريد والعزف على الآلات الموسيقية كالإيقاع والامزاد وتغني النسوة اعذب الالحان، حتى اذا كانت الليلة الثالثة يتجمع افراد القبيلة في ساحة واسعة ويأتي الشبان وهم يمتطون ظهور المهاري ليتنافسوا في جو من الحماس، ثم يصطفون في صفين منتظمين ويشرعون بحركات تساير انغام الأغاني واصوات موسيقى الطبول والامزاد[٩٧].

ويسهب الحسن الوزان في شرح تفاصيل حفل الزواج عند سكان الصحراء بأدق التفاصيل، فيتناول الآلات الموسيقية من المزامير والابواق والطبول، وكيف يستمر العزف والرقص طوال الليل على انغام أصوات المنشدين والحان الموسيقى، اذ يتناوب على الغناء أكثر من منشد بمختلف الالحان الساحرة وفي كل مرة يرقص راقص واحد فاذا انتهى يخرج قطعة نقود ويرمي بها نحو المغنين، فاذا أراد احدهم ان يكرم الراقص جلس على ركبتيه امامه والصق بوجهه قطعة من النقود فيأخذها المغنون على الفور، وفي هذه الحفلات ترقص النساء بمعزل عن الرجال ولهن حفلاتهن الخاصة الراقصة ومغنياتهن وعازفاتهن(٩٨).

٢-حفلات الولادة والتسمية

وهي من العادات التي دأب على ممارستها مجتمع التوارق، اذ انهم يحتفلون باليوم السابع من ولادة المولود وذلك عن طريق طقوس يقومون بها في تسمية المولود، فيذبحون الشياه، ويوزعون الطعام ويعقدون جلسات راقصة يتخللها الموسيقى والغناء وسط ابتهاج وفرح (٩٩).

٥-حفلات الختان

يحتفل التوارق في فصل الشتاء بموسم ختان الأولاد من عمر أسبوع وحتى السنة السابعة من العمر، واختيارهم لهذا الوقت تحديدا فيه علة مفادها ان هذا الوقت مناسب لشفاء الجرح بشكل لن يتعب الصبي، والموروث الشعبي لهذه الممارسة يقوم على ارتداء الصبي قميص ابيض، ويعلق في عنقه احجية وسكين صغير وقرن غزال، بدواعي حمايته من الحسد بحسب الاعتقاد السائد، ثم يحمل إلى المكان المخصص للختن، وتحجب عيناه عن رؤية الختان الذي عادة ما يكون احد الشيوخ الذين تمرسوا على هذا العمل، وبعد إتمام العملية يهرول بالصبي احد الرجال من خواصه مسافة مائة متر تقريبا، حيث تتجمع النسوة لتستقبله بالزغاريد والتصفيق والفرح، وهذه العادة يسلكها التوارق لظنهم ان ذلك يمنع رجوع الدم، وان الجرح سيشفى بسرعة، ولن يتلوث، ثم يوضع على الجرح فحم نبات الطلح الناعم، لتبدأ الحفلة بذبح عدد من الأغنام ويوزع الطعام على الجميع بينما تشكل النساء حلقات من الغناء والعزف والرقص(١٠٠).

٦-حفلات المقابلة

وهي حفلات خاصة تقام بين الرجال والنساء بهدف المحادثة والتعارف، وسط أجواء من الغناء والموسيقى والرقص (١٠١).

٧-حفلات فصل الخريف

يقيم التوارق احتفالات خاصة بفصل الخريف، وهو موسم النماء والتجارة العابرة للصحراء، اذ يتجمع التوارق بالقرب من الابار ليسقوا مواشيهم وابلهم ويبدؤون بالاحتفال بسباق المهاري والرقص والغناء (١٠٢).

٨-حفلات ارتداء اللثام

وهي حفلات تقام على شرف الشباب الذين بلغوا سن العشرين من العمر، اذ يتم فيها ارتداؤهم اللثام وسط جو من الفرح والابتهاج والموسيقى والرقص والسباق (١٠٣).

٩-حفلات خاصة بالمرأة الارملة

وهي حفلات تقام على شرف المرأة التارقية التي تنتهي عدتها، اذ يتم إخراجها من خيمتها عند طلوع الشمس، من قبل بعض النسوة ليحتفلن معها بعودتها (١٠٤).

١٠-حفلات الترويح عن المريض

يعتقد التوارق بان المريض الذي يئس من شفاءه الأطباء، بانه مصاب بالجن، لذلك يقومون بإحياء حفلات الموسيقى والغناء، والرقص ظنا منهم انها تطرد الأرواح الشريرة (١٠٥).

ثالثا: حفلات السهر والسمر

استمدت هذه السهرات والاحتفالات أصلها الفني من موروث شعبي قديم دأب على ممارسته مجتمع التوارق وكانت تقام لمناسبات عدة، منها سباقات الخيول والمهور التي تقام بين الحين والاخر داخل ميدان القبيلة، وكذلك تقام لتشجيع المقاتلين ودفعهم للمشاركة في المعارك أو بعد رجوعهم من الغزو محملين بالغنائم، أو عقب الرجوع من حلب الشياه إلى المخيمات مساءً، أما ليالي السمر فهي واحدة من التقاليد الفنية للمناسبات التي يقيمها التوارق في الليالي المقمرة بعد يوم حافل بالنشاط والحركة وسط الصحراء، فتشكل وسيلة من وسائل الترفيه والترويح عن النفس وطرد الملل فضلا عن انها تساعد في التقارب والتعارف بين الشباب، فهي تقليد متكرر وتراث شعبي أصيل عند التوارق.

١-ليالي السمر:

دأب مجتمع التوارق على إقامة مثل هذه الامسيات، التي تشكل عامل تواصل بين الجنسين، اذ يجتمع الشباب والشابات خارج الخيام ويلتفوا حول موقد النار، ويبدأ عزف موسيقى الامزاد وغناء النسوة والرقص، فيقضون اوقاتا جميلة بالسمر والطرب والغناء والرقص [١٠٦].

٢-سهرات الآهال

وهي سهرات تقام على شكل حلقات، اذ يجتمع الرجال والنساء فتحمل احداهن آلة الامزاد وتشرع بالغناء بأشعار تعبر عن انفعالات حسية معينة مثل التغني بالحب والحبيبة أو بذكر الامجاد والفخر بالبطولات اثناء القتال، ليردد من بعدها النساء والرجال بالغناء والتصفيق، وتقوم نساء اخريات بالرقص وهن يتمايلن بتحريك ارادفهن وايديهن، وتختصر هذه الرقصات على الشباب والبنات بينما يجلس الشيوخ بعيدين وتراقب النسوة المتزوجات وغيرهن من الطاعنات في السن الاحتفال من بعيد كمتفرجات [١٠٧].

ومن الجدير بالذكر انه اذا كان في مخيم القبيلة عدد كبير من الخيام فأننا نجد السهرات المتعددة لحفلات الاهال وقد تسمى باسم المغنية أو صاحبة الامزاد، ونظراً لشدة تعلق التارقي بسهرات الاهال ورغبته في الارتياح من مشاق السفر في الصحراء فانه كان لا يبالي بقطع المسافات الطويلة من الفراسخ حرصاً منه لحضور هذه الامسيات والسهرات، وكان يحرص من يحضر لهذه السهرات سواء من النساء أو الرجال على التزين بأبهى صورة فيرتدي الرجال الملابس الجميلة، وتتزين المرأة بتلوين وجهها برسومات هندسية بصبغة صفراء بالنسبة للنساء فيظهرن بمنظر جميل.

ان اغلب ما يرافق هذه السهرات هو غناء القصائد الشعرية التي تعبر عن احاسيس انسانية ومشاعر رقيقة يصاحبها العزف على الامزاد والطبل وحركات راقصة اشتهرت بها نساء التوارق، وقد يصادف في هذه السهرات وقوع مشادات أو مناوشات بين الشباب أو ان احدا ما يثير صوتا عالياً فيقوم الاخرون بطرده وعدم السماح له بالحضور مرة اخرى [١٠٨].

٣-الحفلات الليلية

وتسمى بـ(تهيجالت) نسبة إلى الآلة المستعملة في العزف، أو تسمى بـ(تهيملت) نسبة إلى تكرار ترديد حرفي الهاء والميم في كلمات الأغنيات التي تؤديها النساء، وتختص

هذه الحفلات بمناسبات الزواج أو تعيين رئيس للقبيلة، أو مناسبة ختان أطفال القبيلة [١٠٩]، ويشترك الرجال والنساء في الرقص في هذه الحفلات، الا انه يعيب على أبناء السادة والاشراف الاشتراك في الرقص [١١٠].

رابعا: الرقص عند التوارق

استمد الرقص عند قبائل التوارق تراثه الفني، وأصالته من رقص البربر القدماء، لكنه فيما يبدو موروث شعبي خاص، اذ يختلف من حيث الحركات والأوضاع عما موجود عند شعوب بلاد السودان في الجنوب، أو عند سكان الشمال، فهو يتميز بالتعابير الجسدية ذات الايحاءات العميقة، فيكون رقص الرجال بحركات متزنة وبخطوات سريعة ملوحين بسيوفهم في الهواء، أما النساء فكانت حركاتهن عبارة عن دوران يصاحبه تحريك القسم العلوي من اجسامهن، وهز الاذرع إلى الامام، والعودة بهن إلى الخلف، وهن يلتفتن يمينا وشمالا [١١١] ، ومن الرقصات التي اشتهرت بها قبائل التوارق هي:

١- رقصة التندي

وهي واحدة من الرقصات التي تصاحب آلة التندي، اذ تنسجم الحركات الاستعراضية المتناسقة التي يؤديها الرجال وهم على ظهور المهاري، والقصائد التي تغنيها النساء مع إيقاع التندي [١١٢].

٢- رقصة العبيد

وتعرف في لغة الصحراء برقصة (قرقابو)، وهي من الرقصات القديمة التي يعود تاريخها إلى حقب بعيدة، ارتبطت بتجارة العبيد، ومنشاؤها ان مجموعة من الاسرى العبيد اخذوا يحدثون أصواتا في السلاسل التي تغل أيديهم وارجلهم، فصارت رقصة يمارسها فئة العبيد في مجتمع التوارق، وهم يتوارثوها جيلا بعد جيل، يرددون فيها ذكرا يمجدون فيه الله ورسوله والاولياء، وهي تقام في موسم محدد من كل عام [١١٣]

٣- رقصة تهيملت

وهي رقصة تصاحب المناسبة الخاصة، اذ تشكل النساء حلقة دائرية تتوزع فيها المهام مابين النساء، فمنهن ما يهتم بالغناء والتصفيق، واخريات يهتمن بعزف التهيجالت والايقاع، فيما يكون الرجال داخل الحلقة يمارسون الرقص بدوران ثابت حول الجسم، حاملين السيوف بزيهم التقليدي المعروف [١١٤].

خامسا: الآلات الموسيقية

مثلت الآلات الموسيقية عند شعب التوارق جزءاً هاماً من التراث الصحراوي الذي جسد طبيعة الحياة اليومية لفئات المجتمع، فهي وسيلة من وسائل الترفيه، واداة للتعبير عن المشاعر والاحاسيس، بل وشكلت تعبيرا هاما عن وظائف اجتماعية لقيم دنيوية ودينية [١١٥]. وقد اشتهرت آلات موسيقية عدة، عند سكان الصحراء يصنعونها بأيديهم، وينسجون بها الإيقاع لأغانيهم، مثل آلات الإيقاع كالطبل والتندي والتهيجالت، وآلات وترية مثل الامزاد، وآلات النفخ مثل الابواق والمزامير، والتي مثلت لغات قائمة بذاتها تعبر عن نمط اجتماعي أو سياق لجزء من الحياة، فهي في مجموعها تعطي دلالات اقوى من الكلام من طريق ما تخرجه من أصوات وايقاعات [١١٦]، ومن بين هذه الآلات:

١ – الامزاد:

تعد آلة الامزاد احدى أهم الآلات الوترية المفضلة بل والمقدسة عند التوارق، فهي اشبه بالربابة التي يستعملها عرب الصحراء، كانت أول امرها تصنع بشكل بدائي باستعمال نبات القرع، إذ يقوم التوارق بإزالة المحتوى الداخلي ليصبح بطنه فارغا ثم تغلق الفتحة بقطعة من جلد الماعز الطري ويربط بخيوط تمرر حول القرع، ثم يوضع من الجانبين عودين من الخشب، ثم يترك ليجف ويتصلب، بعدها يتم ربط الوتر من طرف احد الاعواد المثبت في القرع إلى حافة العود الثاني[١١٧]، ويتم العزف عليها عن طريق قوس يصنع من اغصان الشجر يربط فيه شعر الحصان، لكن سرعان ما تطورت ليتم صنعها من خشب الأشجار على شكل قدح تغلف فتحته بجلد الماعز او البقر او الابل الناشف ثم يخرج من الجانبين عودان يتم وصلهما بوتر مصنوع من شعر ذيل الحصان، ثم يأتون بعود آخر مقوس الشكل ويربطون طرفيه بشعر ذيل الحصان وعند دعك شعر الوتر بشعر القوس فأنه يصدر أصواتا جميلة يغيرون نبراته بتمرير أصابع اليد اليسرى على الوتر بينما اليد اليمنى تواصل الدعك[١١٨]، وتحتكر نساء التوارق العزف على هذه الآلة وقد تفنن في أداء الموسيقى والغناء بصوت طربي يصاحبه صدى نغم الامزاد الذي يؤثر في الروح ويخاطب المشاعر، وعن سبب احتكار النساء العزف على هذه الآلة هو وجود طقوس خاصة وردت ضمن الاساطير التي شاعت عند التوارق بان الرجل اذا عزف عليها يعم الخراب والحزن[١١٩].

ان القدسية التي استمدتها آلة الامزاد تأتي كونها ذات عمق تاريخي عريق، يؤكد اصالة شعب التوارق فيعتقد ان اول من صنعها واخترعها هي ملكتهم الام (تينهنان) [١٢٠]؛ وان الامزاد لها سحرها الخاص فيما تعكسه من اثر على شخص المرأة التارقية العازفة اذ ان الاجادة في العزف ترمز إلى حسن التربية ونبل الاصل[١٢١]، بل ان مجالس الامزاد تعكس مظاهر النبل والشهامة والشجاعة، والحفاظ على نقاوة العلاقات العاطفية، لذلك فان الغالب على الحاضرين من ذوي النهى والعقول من الرجال حرصهم على الاستماع بشغف بوصف ذلك سموا وابتعادا عما يحط من كرامتهم وينتقص من خلقهم[١٢٢].

٢ – التندي

ومعناه في اللغة التارقية (المهراس) وهو من الآلات الموسيقية الايقاعية المشهورة عند التوارق، توارثوها جيلا بعد جيل، اذ استمدت جذورها من المهراس (الهاون) الذي يستعمل في دق التمور، فكانوا إذا انتهوا من هذا العمل يضعون فوق فوهته قطعة من جلد الماعز، ليستعمل كدف تضرب به النساء في ليالي السهر التي تصاحبها الأغاني والرقصات بعد يوم من الجهد الشاق يشارك فيها الرجال والنساء، وهو عبارة عن طبل دائري مصنوع من الخشب المجوف المغلق بجلد الماعز، يضرب بكلتا اليدين بالتناوب أو بقضيب خشبي من قبل امرأتان، ويشترك الرجال برقصات استعراضية على ظهور الابل ، بينما ترتفع أصوات المغنيات بصنوف الالحان التي تمجد البطولات وتشحذ الحماس، وتشد الروح بالغزل العفيف لذلك نجد مثل هذه الحفلات تستقطب الشباب قصد التعارف على الشابات [١٢٣]، ومن اهم طقوس وتقاليد التندي ان تقوم النساء بتشكيل حلقة دائرية في الهواء الطلق في أجواء من الفرح والرقص [١٢٤].

٣–التهيجالت (تهيقالت)

آلة إيقاع ورقصة في الوقت نفسه تستعمل في الافراح فقط، فهي موروث فني قديم يعكس عمق النشاط الموسيقي والغنائي عند التوارق، ويؤثر ان معنى كلمة (تهيجاليت) في اللغة التارقية تشير إلى (العزوبة) لذا نجد الفتيات يتحمسن للعزف على هذا النوع من الآلات لتشير إلى الرغبة في الزواج ، فقد أراد التوارق ان يميزوا افراحهم عن باقي التجمعات الاحتفالية التي يقيمونها فخصوا بهذه الآلة الايقاعية، ومن السهل صنع هذه الآلة ان تحتم الامر، فيمكن استعمال آنية منزلية مصنوعة من الخشب تستخدم لحفظ الماء ليتم تحويلها

إلى آلة موسيقية بعد تغليفها بجلد البعير للتطبيل عليها باليدين فتصدر أصواتا موسيقية مميزة [١٢٥]، والتهيجاليت آلة دائرية مصنوعة من الخشب وجلد الماعز تستعملها النساء عادة في المدائح الدينية [١٢٦]، كما اختص استعمالها في المناسبات السعيدة لاسيما حفلات الزواج [١٢٧].

٤-الطبل

هو أحد آلات الإيقاع، لكن وظيفته تعددت بتعدد استعمالاته، فهو يمثل رمز السيادة عند قبائل التوارق، وشعار الحكم أو السلطنة، اذ كان يمنح للشخص الذي تؤول اليه رئاسة القبيلة (الامنوكال) من أبناء الأخت الكبرى فيعلق على باب خيمته [١٢٨] ينتقل بالوراثة تباعا[١٢٩]، فيضرب عليه بحسب الحاجة التي تدعو إلى ذلك، وهو عبارة عن آنية كبيرة من الخشب، اسطوانية الشكل تغطى فوهتها بجلد الإبل او البقر وتربط ربطاً محكما بحبال، وتثقب قطعة الجلد ثلاث ثقوب صغيرة ومتقاربة لكي تسمح بخروج الهواء، عند الضرب عليه بعصا يلف طرفها بعقال الجمل [١٣٠].

ولعل اول استعمال للطبل رصده الباحث هو استعمال التجار العابرين الصحراء له، كإشارة لوصولهم إلى مناطق التبادل التجاري فيما عرف قديما بـ (التجارة الصامتة) التي كانت قائمة بين تجار شمال افريقيا ومصر وبلاد السودان[١٣١]، كما استعمل كإشارة لرحيل القبيلة، فاتخذ راية التقدم والمسير[١٣٢]، ثم صار للطبل وعدد ضرباته قواعد يستند اليها بحسب الحدث او الفعل او الامر، فكان عن طريق عدد الضربات يعرف السامع المقصود من وراء هذا الضرب، مثل اعلان الحرب، أو لمواجهة غزو خارجي، أو الإعلان عن رفع الخطر، أو تغيير مكان المخيم والانتقال إلى مكان جديد، أو الدعوة إلى التجمع العام[١٣٣].

٤-آلة الناي (تزامت)

من الآلات الهوائية يعزف عليها الرجال بالنفخ، وهي عبارة عن قصبة صغيرة مجوفة ومفتوحة من الطرفين، فيها أربعة ثقوب متساوية في الحجم والابعاد، تشبه الناي في وقتنا الحاضر، وهي من الآلات التي استعملها التوارق في أواخر العصور الوسطى اذ سبقها البوق الذي كان يصنع من قرون الحيوانات، تصدر هذه الآلة لحنا خاصا يستأنس به، وعادة ما يعزف عليها الرعاة وتصاحب القوافل في اسفارها [١٣٤]، كما اختصت التوارق بألحانها ونغماتها يعزفوها في ليالي السمر في الصحراء [١٣٥].

سادسا: أغاني التوارق

انتقلت الأغاني عند التوارق شفاها عبر الذاكرة الاجتماعية، اذ انها لا ترتبط بمنشد واحدن بل هي نتاج افراد المجتمع ككل، وهم الذين اسهموا في ايجادها، واستحداث الغاية منها، فهي بذلك تمثل فنا ادبيا ناطقا، وشكلا من اشكال الابداع الذي واكب مسيرة الانسان خلال حياته، والمواقف للحياة اليومية، فهي تمثل بشكل عام لون من الوان التعبير الحسي عند المجتمع، والشعور بالجماعة والذوق السائد، ولذلك نجد تعدد الأنماط الغنائية عند التوارق، منها أغاني الأطفال التي ترددها الأمهات وهي تسهد طفلها في المهد، أو تلك التي يرددها الصبية عند اللعب، واغاني العمل كالرعي والصيد، وأغاني تحاكي الواقع الديني في الاحتفالات والاعياد، والمدائح والشعائر والطقوس، واغاني تناغم خلجات النفس، وتداعب المشاعر الناتجة عن الحب والغرام(١٣٦).

والاغنية التارقية تحمل طابع الحزن العميق، الذي يجسد العزلة وسط الصحراء، وظاهرة عدم الاستقرار، والاشتياق إلى مرابع الصبا وحديث الخلان، وان صوت الموسيقى الذي ينساب بدفء بالغ مع أصوات المغنيات، ليلج إلى أعماق النفس فيبعث على السكون والاصغاء (١٣٧)، فيتناسق اللحن وينضبط، لاسيما عندما تتعلق موضوعاتها في مناسبات التفاخر بالشجاعة والرجولة، او التشبيب بالحبيبة والهيام (١٣٨).

الخاتمة:

بعد رحلة البحث الشاقة التي اجراها الباحث، وهو يفتش في ثنايا المصادر عن مضامين يؤطر بها مفردات البحث ويغطي المساحة التي تحرك فيها لعله يخرج بنتائج يمكن لها ان تشكل نافذة جديدة تضاف إلى نوافذ المعرفة، وتعزز من الخزين الثقافي للمكتبة العربية، ومن اجل ذلك فقد خرج البحث بنتائج مهمة كان من أبرزها:

١- ان مجتمع التوارق من المجتمعات الصحراوية التي تمتلك موروثات ثقافية وفنية متعددة، عبرت من خلالها عن روح الجماعة، وعن القيم الجمالية التي تميز بها سكان الصحراء.

٢- شكل التراث الفني الغنائي والموسيقي عند التوارق، جزءا كبيرا من التراث الصحراوي، اذ عبر من خلاله عن وظائف اجتماعية لقيم دينية ودنيوية.

٣- عبرت الآلات الموسيقية التي يصنعها التوارق عن حس جمالي معبر، جمع بين الفن والذوق، وكان أساس قوامه الحفلات والسهرات وجلسات السمر التي رصدت قيم الجماعة وجسدتها بنوع من التواصل الاجتماعي.

٤- ان حالة العزلة التي يعيشها المجتمع التارقي وسط الصحراء، جعلت منه شعبا تواقا للحياة والمرح والرقص والغناء، وميالا إلى ممارسة طقوسه عبر تلك النوافذ.

٥- قدس التوارق آلة الامزاد، واعتبروها جزءا من تراثهم الخالد، الذي يعبر عن غاياتهم وأمانيهم، لذلك نراهم اطروها بإطار من القدسية ومنحوها مرتبة الشرف.

٦- تعددت احتفالات التوارق وتنوعت بحسب الغاية، فمنها الاحتفالات الدينية، ومنها الاجتماعية، التي مثلت قيم المجتمع ومدى تمسكه بالعادات والتقاليد.

٧- مثل الغناء عند التوارق وسيلة معبرة عن خلجات النفس، وتنفيس للمشاعر.

٨- تميز الرقص عند التوارق بحركاته المعبرة والمتناسقة عن روح الانسجام بين اللحن والايقاع والنغم.

الهوامش والمصادر:

---

(١) بلاد تقع في المغرب الاقصى، اهلها اخلاط من البربر، لكن الغالب عليهم بطن مداسة، نزلها بنو عبد الله بن ادريس بن ادريس، ومدينتها طنجة. اليعقوبي: أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٩٢هـ/٩٠٤م)، البلدان، تحقيق محمد امين ضناوي، دار الكتب العلمية، (بيروت د ت)، ص١٩٨؛ ياقوت الحموي: شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت ١٩٧٧م)، ج٣، ص٢٨١.

(٢) يرى ترمنكهام ان المؤرخين والجغرافيين العرب أول من اشار إلى تلك البلاد ووصفوها ببلاد السودان اي البلاد التي يسكنها اصحاب البشرة السوداء ومن بينهم القزويني الذي حدد موقع تلك البلاد بشكل دقيق قائلا: " هي بلاد كثيرة وارض واسعة ينتهي شمالها إلى ارض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها الحبشة وغربها إلى البحر المحيط ". زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، (بيروت ١٩٦٩م)، ص٢٤. J. Spencer, Ttimingham, Islam of west Africa, Oxford University ١٩٥٩, London, P.١.

(٣) فيزون: ريمون، الصحراء الكبرى الجوانب الجيولوجية – مصادر الثروة – استغلالها، ترجمة جمال الدين الدناصوري ونصري شكري، مؤسسة سجل العرب للنشر، (القاهرة ١٩٦٣م)، ص١.

(٤) العربي: اسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر ١٩٨٣م)، ص١٣-١٤.

(٥) الزبيري: محمد العربي، التجارة الخارجية في الشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر ١٩٧٨م)، ص٥٨.

(٦) البرية القفر، وسميت الصحراء مفازة لان من خرج منها وقطعها فاز. الرازي: محمد بن ابي بكر بن عبد القادر(ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، مختار الصحاح، دار الرسالة، (الكويت ١٩٨٣م)، ص٥١٤.

(٧) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مسالك الممالك، مطبعة بريل، (ليدن ١٩٢٧م)، ص٤٥.

(٨) هي مدينة تقع في الطرف الجنوبي من بلاد المغرب بينها وبين البحر عدة مراحل، أهلها اخلاط والغالب عليهم البربر، يزرعون الدخن والذرة وفيها بساتين اشجار النخيل. ينظر: اليعقوبي: البلدان، ص١٩٨.

(٩) وهي مدينة قديمة يحدد الجغرافيون موقعها قبل اندثارها بانها تقع جنوب مدينة سجلماسة بمسافة تقدر بمسيرة شهرين. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٧٧.

(١٠) البكري: ابو عبيد بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، المسالك والممالك، تحقيق ادريان ليوفن واندري فيري، دار الغرب الاسلامي، (بيروت ١٩٩٢م)، ج١، ص٨٣٧،٨٤٦.

(١١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي نسباً إلى قبيلة لواتة احدى قبائل البربر البتر، ولد في طنجة ونشأ وسط أسرة علمية تولى أغلب افرادها منصب القضاء، لذلك أولت عنايتها به فنال جانبا كبيرا من العلم ، كان مناسبا ليتولى القضاء هو ايضا، بدأ رحلته ومشوار اسفاره الذي استغرق زهاء التسعة وعشرين عاما ونصف العام تقريباً ، في سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٥٣م زار فيها اغلب بلدان العالم ، ثم عاد إلى مرابع اهله في مدينة فاس ليستقر حتى وفاته سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م. ينظر: ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين احمد بن علي بن محمد (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة، دار احياء التراث، (بيروت ٢٠١٢م)، ج٣، ص٤٨٠؛ الزركلي: خير الدين، الاعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، (بيروت ٢٠٠٢م)، ج٦، ص٢٣٥.

(١٢) ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص، دار احياء العلوم، (بيروت ١٩٨٧م)، ص٦٨٨.

(١٣) بلاد عريضة واسعة فيها مدن كثيرة وعمائر متصلة، تقع آخر بلاد افريقية من طرف الصحراء، سميت نسبة إلى كثرة اشجار النخيل. ينظر: مؤلف مجهول (من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، الاستبصار في عجائب الامصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، (الدار البيضاء ١٩٨٥)، ص١٥٠.

(١٤) الوزان: الحسن بن محمد الزياني الفاسي (ت٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، وصف افريقيا، تعليق آ. ايبولار، ت. مونو، هـ. لوت، ر، موني، ترجمة عبد الرحمن حميدة وعلي عبد الواحد، منشورات جامعة محمد بن سعود الاسلامية، (الرياض ١٩٧٨م)، ص٣٧، ٤٠.

(١٥) هـ.ج. هوغو: الصحراء ماقبل التاريخ، تاريخ افريقيا العام، اشراف ج.كي.ربريو، اليونسكو، مطبعة كانالي، (ايطاليا١٩٨٣م)، م١، ص٥٩١؛ الشكري: احمد، الصحراء والتجارة الصحراوية بعيون المؤرخ الفرنسي ريموند موني، كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة بنمسيك، (المغرب ٢٠١٣م)، ص٢١٧؛ زبادية: عبد القادر، دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب المسلمين، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر د ت)، ص٩.

(١٦) عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، تحقيق خليل شحاذة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت ٢٠٠٠م)، ج٦، ص١٣٢.

(١٧) العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، ص١٦.

(١٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٦٨٨.

(١٩) تقع هذه المنطقة الواسعة في الجنوب الغربي من الصحراء وهي مليئة بالواحات والقصور الغنية باشجار الفاكهة قدر عددها بـ(٣٥٠) واحة، وفيما يذكر من اراء ان اسمها استمد من أحد بطون قبائل الملثمين: ينظر: الانصاري: ابو عبد الله محمد (ت٨٩٤هـ/١٤٨٨م)، فهرست الرصاع، تحقيق محمد العنابي، دار الكتب الوطنية، مكتبة العتيقة، (تونس ١٩٦٧م)، ص١٢٧.

(٢٠) المصدر السابق، ص٦٨٨.

(٢١) كلمة ايطالية تعني الرياح الساخنة، وهي تشبه رياح السموم عندنا في العراق.

(٢٢) وصف افريقية، ص٨٦.

(٢٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٦٨٧.

(٢٤) الادريسي: ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس (ت٥٦٠هـ/١٠٩٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، (بور سعيد د ت)، ص٢٨.

(٢٥) جاء في اصل هذه التسمية اراء عدة منها نسبة إلى الرطانة الاعجمية في لغتهم فالبربرة بلسان العرب هي اختلاط الاصوات غير المفهومة، ويقال بربر الاسد اذا زأر باصوات غير مفهومة؛ ويرى البعض ان هذه التسمية جاءت في اللفظ العربي بربر اي بمعنى تمتم وهو الحديث بشيء غير مفهوم أو مبهم، وقيل انه جاء من لفظ بر المكرر ويعني الصحراء، وقد سرد ابن خلدون في تاريخه اراء المؤرخين العرب في اصل البربر، واتى عليهم واحدا واحد ثم ادرج ايضا اراء نسابة البربر وهم صابي بن مسرور الكومي، وكهلان بن ابي لوا، وسالم بن سليم المطماطي، وهانئ بن بكور الضريسي، وايوب بن ابي يزيد لكنه بعد ذلك يتجاهل كل تلك الاراء ويرجح رأي ابن حزم القرطبي نزولا عند ما وثقه له يوسف

الوراق. ينظر: ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١١٦-١٢٨، الوزان: وصف افريقيا، ص٤٢.

(٢٦) للمزيد بهذا الخصوص ينظر: السلاوي: ابو العباس احمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب للنشر، (الدار البيضاء ١٩٩٧م)، ج١، ص١١٧.

(٢٧) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٢٦-١٢٨.

(٢٨) ابن حزم الاندلسي: ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف، (القاهرة ١٩٦٢م)، ص٤٩٥-٤٩٦.

(٢٩) ايوب: محمد سليمان، جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراتي للطباعة والنشر، (طرابلس ١٩٦٩م)، ص٢٤١.

(٣٠) ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٤١.

(٣١) يبدو ان السعدي نقل معلوماته من صاحب كتاب الحلل الموشية وذلك لمطابقة النص تماما سوى بتغيير مسوفة بدل لمتونة. ينظر: مؤلف اندلسي مجهول (عاش في القرن الثامن الهجري)، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، (الدار البيضاء ١٩٧٩م)، ص٤١٧؛ السعدي: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، تاريخ السودان، تحقيق هوداس، مطبعة بردين، (باريس ١٩٨١م)، ص٢٥.

(٣٢) ابن حوقل: ابو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الارض، ط٢، مطبعة بريل، (ليدن ١٩٣٨م)، ص١٠١؛

(٣٣) تحفة النظار، ص٦٨٧-٦٨٨.

(٣٤) ورد اسم هذه البلاد بألفاظ عدة فقيل كاوكة، وكوكيا، وهي بلاد عريضة كانت موطن قبيلة السنغى وعاصمة دولتهم قبل مدينة جاو. القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الاعشى في صناعة الانشا، المطبعة الاميرية، دار الكتب الخديوية، (القاهرة ١٩١٥م)، ج٥، ص٢٧٣.

(٣٥) منطقة الهقار هي سلسلة جبلية تقع جنوب الجزائر إلى حدود مالي، ينمو فيها شجر تدبغ فيه الجلود يسميه التوارق (الهقار) فسميت الجبال باسمه وقيل للقاطنين في تلك المنطقة توارق الهقار. ينظر: القشاط: محمد سعيد، صحراء العرب الكبرى، دار الرواد للطباعة والنشر، (طرابلس ١٩٩٤م)، ص١١٠.

(٣٦) ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٨٥.

(٣٧) عبد القادر: خليفي، مجتمع طوارق الجزائر: الخصوصيات الانثروبولوجية والسيوسيوثقافية، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة محمد بوضياف، (المسيلة ٢٠١٧م)، العدد ١٣، ص٢٤٤.

(٣٨) Lhote: Henri, Die Tuareg, Koln (١٩٧٨), PP.٣٥٥

(٣٩) ماكيفيدي: كولين، أطلس التاريخ الافريقي، ترجمة مختار السويفي، منشورات الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة ١٩٨٧م)، ص٧٥،٧٩.

(٤٠) كانت بدايتها عبارة عن واحة تقع إلى الجنوب الغربي من فزان، ثم تحولت تدريجيا إلى مدينة صحراوية وسوق تجارية كبيرة. الزاوي: الطاهر احمد، معجم البلدان الليبية، منشورات مكتبة النور، (طرابلس ١٩٦٨م)، ص٢٣٨.

(٤١) يوشع: بشير قاسم، غات ملامح وصور، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، (طرابلس ٢٠١١م)، ص١١.

(٤٢) جاء لفظ اسم هذه المدينة في المصادر بصور مختلفة فمنهم من لفظها (تمبكتو) و (تنبكتو) و(طوبوكتو) ونحن اعتمدنا لفظ مؤرخي السودان وما جاء فيها من تصريف لهذا الاسم، فقيل انه لفظ امازيغي نسبة إلى اسم امرأة عجوز تدعى (بكتو) كانت خازنة لمتاع التوارق فلحق بها لفظ (تين) بمعنى المكان فصار (تينبكتو) اي مكان العجوز؛ وقيل انه على اسم احد العبيد الذي يدعى (بوتو) الذي كان يحرس متاع التوارق فأضيف له(تين) بمعنى المكان فصارت (تينبوتو).ينظر: السعدي: تاريخ السودان، ص٢٠؛ الحسن الوزان: وصف افريقية، ص٥٣٩.هـ

(٤٣) مدينة صغيرة تقع في الجنوب الغربي للمغرب، بينها وبين سجلماسة اربعة فراسخ. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥١.

(٤٤) السعدي: تاريخ السودان، ص٢٠-٢١.

(٤٥) ابن حوقل: صورة الارض، ص١٠٥.

(٤٦) وصف افريقيا، ج٢، ص١٥٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٣٣.

(٤٨) القشاط: محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء، ط٢، منشورات مركز دراسات وابحاث شؤون الصحراء، (ليبيا ١٩٨٩م)، ص٢٧.

(٤٩) بوسكين: خديجة، جانت ارض اموهاغ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية العلوم الاجتماعية جامعة عبد الحميد بن باديس، (مستغانم ٢٠١٧م)، ص١٦.

(٥٠) ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٣٥،١٤٤.

(٥١) الانصاري: محمد الشيخ، االتوارق الاصل والموطن، مجلة الجنوب الليبي، العدد الأول ٢٠٠١م، ص٦٢.

(٥٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

(٥٣) اكنانه: ولد النقره، التوارق من الهوية إلى القضية، منشورات المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (نواكشوط ٢٠١٤م)، ص٧٢.

(٥٤) تحفة النظار، ص٧٠٩

(٥٥) المصدر نفسه، ص٦٩٠

(٥٦) النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت٢٠٠٤م)، ج٢٤،ص١٤٦.

(٥٧) جامي: عبد القادر، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الاسطى، تقديم على مصطفى المصراتي، دار المصراتي للنشر والتوزيع، (طرابلس١٩٧٤م)، ص٨١.

(٥٨) السوقي: الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين الحسني الادريسي، الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين ومن يجاورهم من السوادين، مكتبة محمد بن بكاي عقباوي، (د م ١٩٩٩م)، ص١٧.

(٥٩) الانصاري: التوارق الاصل والموطن، ص٦٢-٦٣.

(٦٠) الحسن الوزان: وصف افريقية، ج٢، ص٦٧.

(٦١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٧٠٩.

(٦٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٧١٢؛ الدالي: الهادي المبروك، التاريخ الحضاري لافريقيا فيما وراء الصحراءمن نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط٢، مطابع الوحدة العربية، (الزاوية ٢٠٠١م)، ص٣٨.

(٦٣) الحسن الوزان: وصف افريقية، ج٢، ص٦٦-٦٧.

(٦٤) اكنانة: التوارق من الهوية إلى القضية، ص٧٤-٧٥.

(٦٥) تحفة النظار، ص٦٩٠.

(٦٦) Lhote: Henri, Die Tuareg, Koln, PP. ٢٤٧؛ أماهين: الشاوي الاله البكاي، التوارق عبر العصور، تحقيق: اصلاح محمد البخاري حمودة، دار الكتب الوطنية، (بنغازي ٢٠٠٧م) ، ص٢٧٤.

(٦٧) البلدان، ص١٩٩.

(٦٨) صورة الأرض، ص١٠٢.

(٦٩) ابو عبيد بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة د ت)، ص١٧٠.

(٧٠) أبو العباس احمد بن محمد المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، تحقيق: احسان عباس، ط٣، دار الثقافة، (بيروت ١٩٨٣م)، ج٤، ص١٢٨.

(٧١) نهاية الارب في فنون الادب، ج٢٤، ص١٤٥.

(٧٢) ابن حوقل: صورة الارض، ص٩٨؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٦٨٧،٦٩٢،٧٠٩،٧١٠،٧١٢،٧١٣؛ الحسن الوزان: وصف افريقية، ج٢، ص٦٧،٧٠.

(٧٣) ابن حوقل: صورة الارض، ص١٠١-١٠٢.

(٧٤) قادري: عبد الكريم، موسيقى الامزاد شمس التوارق التي لا تغيب، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٣١، (البحرين ٢٠١٥م)، ص١٢٤.

(٧٥) سعدي: مليكة، الصحراء والاسطورة في روايات ابراهيم الكوني، اطروحة دكتوراه جامعة وهران غير منشورة، (الجزائر ٢٠١٢م)، ص٣٨.

(٧٦) ابن تاويت: محمد، فاس جولة في احداثها الكبرى، مجلة المناهل، العدد ٥، (الرباط ١٩٧٦م)، ص١٨٠.

(٧٧) اذ عثر على سلع موسيقية وصلت عن طريق التجارة المصرية مثل الطبول والقيثارة. ينظر: طرخان: إبراهيم علي، البرتغاليون في غرب افريقيا، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، (جامعة القاهرة ١٩٦٣م)، ص٣٦.

(٧٨) العرباري: محمد مختار، البربر عرب قدامى، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، (الرباط ١٩٩٣م)، ص٢٦٣-٢٦٦؛ محمود: مصطفى، مغامرة في الصحراء، منشورات المكتب المصري الحديث، (القاهرة د ت)، ص٣٥؛ عبد الجليل: عبد العزيز، مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية، مجلة عالم المعرفة، العدد ٦٥، (الكويت ١٩٨٣م)، ص١٥.

(٧٩) ينظر: ابن حوقل وقد اشار إلى الطنابير والمعازف (صورة الأرض، ص٩٨)؛ ابن خلدون وقد أشار إلى الجانب الفني لقبائل التوارق التي تقطن نواحي برقة ووصفهم بأنهم يحسنون الغناء (ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٥٣)؛ الناصري الذي أشار إلى المزامير وآلة اللهو (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص١٣).

(٨٠) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٤٥.

(٨١) ينظر: التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص٤١.

(٨٢) عبد القادر: مجتمع الطوارق، ص٢٥٤

(٨٣) قادري: موسيقى الامزاد، ص٧٥.

(٨٤) زكريا: فؤاد، مع الموسيقى ذكريات ودراسات

(٨٥) نور الدين: بن عبد الله، الحلي التقليدية لطوارق الهقار، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابي بكر بلقايد، (تلمسان ٢٠٠١م)، ص١٣٠.

(٨٦) الغناء الترنيم بالكلام الموزون وغيره، المصحوب بالموسيقى أو غير مصحوب. ينظر: معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، (القاهرة ١٩٦٠م)، ص٦٦٤.

(٨٧) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص٦٥.

(٨٨) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(٨٩) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٩٠) يوشع: غات ملامح وصور، ص٦٣.

(٩١) جعفري: أطلس العادات، ص١٢٣.

(٩٢) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٣.

(٩٣) جامي: من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ص١٥٢-١٥٣.

(٩٤) جعفري: أطلس العادات، ص١٠٥-١٠٩؛ القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٣.

(٩٥) الحسن الوزان: وصف افريقيا، ص٧٤.

(٩٦) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص٥٤.

(٩٧) أماهين: التوارق عبر العصور، ص٢٧٧.

(٩٨) وصف افريقيا، ج٢، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٩٩) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص٩٨.

(١٠٠) ينظر: الحسن الوزان: وصف افريقيا، ج١، ص٢٥٧؛ القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٠؛ اماهين: الطوارق عبر العصور، ص٢٨٤-٢٨٥.

(١٠١) حنان: تكرا ومباركة: حمو علي، قبائل الطوارق من خلال المستكشفين هنري دوفيري وشارل دوفوكو انموذجا، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة احمد دراية، (ادرار ٢٠٢٠م)، ص٨.

(١٠٢) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٤.

(١٠٣) حنان ومباركة: قبائل الطوارق من خلال المستكشفين، ص٩.

(١٠٤)هاشمي: آمال، الوضع الاجتماعي والفكري لطوارق الهقار، رسالة ماجستير من كلية العلوم الانسانية قسم الحضارة الاسلامية، (جامعة وهران ٢٠٠٧م)، ص٧٣.

(١٠٥) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٤.

(١٠٦) بوظو: روشان مفيد، اساسيات الادارة الفندقية الحديثة، الأكاديميون للنشر والتوزيع، (عمان ٢٠١٤م)، ص٢١٩.

(١٠٧) هاشمي: الوضع الاجتماعي، ص١٢٥.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص١٢٦.

(١٠٩) اماهين: الطوارق عبر العصور، ص٢٧٩.

(١١٠) جامي: من طرابلس الغرب إلى الصحراء، ص١٥٠.

(١١١) المصدر نفسه، ص١٥٢.

(١١٢) بوسكين: جانت ارض اموهاغ، ص٦٣.

(١١٣) جعفري: أطلس العادات، ص١٤٧.

(١١٤) المصدر السابق، ص٦٣.

(١١٥) أبو دربالة: الاغنية الشعبية، ص٥٦.

(١١٦) سبابو: مريم بوزيد، دور الغناء والموسيقى في تشكيل الهويات الاجتماعية عند طوارق الاجر، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة يوسف بن خدة، (٢٠٠٨م)، ص٥٩.

(١١٧) هورنمان: فريدريك، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان، ترجمة مصطفى محمد جودة، مكتبة الفرجاني، (طرابلس ١٩٦٨م)، ص٩٤؛ هاشمي: الوضع الاجتماعي والفكري لطوارق الهقار، ص٥٩.

(١١٨) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٤٦.

(١١٩) قادري: موسيقى الامزاد، ص١٢٥.

(١٢٠) مختار: بكاري، التجربة الجزائرية في صناعة السياحة الصحراوية منطقة الهقار والطاسيلي نموذجا، جامعة اسطنمولي، الجزائر، ص١٥.

(١٢١) حينوني: رمضان، الكلمة والنغم والحركة وسيادة المرآة التارقية، مجلة حوليات التراث، العدد ١١، (جامعة مستغانم ٢٠١١م)، ص١٤٥.

(١٢٢) عبد القادر: مجتمع طوارق الجزائر، ص٢٥٤.

(١٢٣) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٤٧؛ نور الدين: الحلي التقليدية، ص٣٠؛ جعفري: أطلس العادات، ص١٥٠.

(١٢٤) قادري: موسيقى الامزاد، ص١٢٥.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(١٢٦) نور الدين: الحلي التقليدية، ص٣١.

(١٢٧) جعفري: أطلس العادات، ص١٤٤.

(١٢٨) هاشمي: الوضع الاجتماعي، ص٣٣.

(١٢٩) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٠٠.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص٥٠-٥١.

(١٣١) القزويني: اثار البلاد واخبار العبار، ص١٩.

(١٣٢) الشنقيطي: حماه الله ولد السالم، صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١١م)، ص٤٩.

(١٣٣) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص٥١-٥٢.

(١٣٤) قادري: موسيقى الامزاد، ص١٢٥.

(١٣٥) القشاط: التوارق عرب الصحراء، ص١٤٧.

(١٣٦) ينظر: أبو دربالة: الاغنية الشعبية، ص٤٠-٥٢.

(١٣٧) اماهين: الطوارق عبر العصور، ص٢٨٠،٢٨٣.

(١٣٨) جامي: من طرابلس الغرب إلى الصحراء، ص١٨٢.